

التَّائِيخُ الْإِسْلَامِيُّ

مَوَاقِفُ وَعَمَر

١٢

الخلفاء السُّلْطَانِيَّة

الجزء الرابع

تأليف

دكتور عبد الغفر بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار النشر والنزيع

للنشر والنزيع

جدة

دار النشر والنزيع

للطبع والنشر والنزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولي

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشأ - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧ - معركة نهاوند (فتح الفتوح) -

معاهدة بين الفرس :

ذكر الإمام الطبري خبر اجتماع الفرس بنهاوند وذلك فيما ما أخرجه عن شيوخه أنهم قالوا : وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يَزْدَجَرْدُ الملك - وقد ذكر في رواية سابقة أن الملك كاتب أهل فارس يحرضهم على المسلمين - فتوافوا إلى نهاوند ، وذكروا أنه اجتمع بها خمسون ومائة ألف مقاتل ثم ذكر ابن جرير رواية أبي طعمة الثقفي - وكان قد أدرك ذلك - قال : ثم إنهم قالوا : إن محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يَغْرُضْ غَرَضَنَا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض فارس إلا في غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض ، حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز ، وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد أخرج بيت مملكتكم ، واقتحم بلاد ملككم ، وليس بمتمته حتى تُخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين - يعني البصرة والكوفة - ثم تُشغلوه في بلاده وقراره .

قال : وتعاهدوا وتعاقدوا ، وكتبوا بينهم على ذلك كتابا وتماثوا عليه .

وبلغ الخبر سعدا وقد استخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبان ، ولما شخص لقي عمر بالخبر مشافهة ، وقد كان كتب إلى عمر بذلك ، وقال : إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح - يعني لقتال الأعداء -

قبل أن يبادروهم الشدة ، وقد كان عمر منعهم من الانسياح في الجبل .
وكتب إليه أيضاً عبد الله - يعني ابن عتبان - وغيره بأنه قد تجمع
منهم خمسون ومائة ألف مقاتل فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة
ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلكم .
وكان الرسول بذلك قريب بن ظفر العبدى .

قال فقال - يعني عمر : ما اسمك ؟ قال : قريب ، قال : ابن
من ؟ قال : ابن ظفر ، فتفاءل إلى ذلك وقال : ظفر قريب إن شاء الله
ولا قوة إلا بالله .

مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي :

ونُودي في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ووافاه سعد ،
فتفاءل إلى سعد بن مالك - يعني قدم سعد بن أبي وقاص المدينة
فتفاءل عمر بقدمه - وقام - يعني عمر - على المنبر خطيباً ، فأخبر
الناس الخبر واستشارهم .

وقال : هذا يوم له مابعده من الأيام ، ألا وإنى قد هممت بأمر
وإنى عارضه عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني وأجزوا ولا تنازعوا
فتفشلوا وتذهب ريحكم ، ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور -
يعني تتسع - ويلتوي عليكم الرأي ، أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي
ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً واسطاً بين هذين المصرين
فأستنفرهم ، ثم أكون لهم رداءً حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب ،
فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم ، وليتنازعوا ملكهم .
فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد

الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فتكلموا كلاماً ، فقالوا : لانرى ذلك - يعني سير أمير المؤمنين بنفسه - ولكن لا يغيين عنهم رأيك وأثرك ، وقالوا : بإزائك وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ، ومن قد فضّ جموعهم وقتل ملوكهم ، وبأشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك ، فأذن لهم وأنذب إليهم وأدع لهم .

وكان الذي ينتقد له الرأي إذا عرض عليه العباس رضي الله عنه - يعني يعرض عليه الآراء ويأخذ رأيه فيها - .

قال : فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي ، وفهموا ما كتب به إليك ، وأن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذين أظهر وجنده الذي أعزّ ، وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود مع الله والله منجز وعده وناصر جنده ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحل تفرق ما فيه وذهب ، ثم لم يجتمع بهذا فيره أبداً ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام ، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم ، ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأحدّ وأجدّ من هؤلاء ، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم .

فسرّ عمر بحسن رأيهم ، وأعجبه ذلك منهم .

وقام سعد فقال : يا أمير المؤمنين خفّض عليك فإنهم إنما اجتمعوا
لنقمة - يعني من الله عليهم - (١) .

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمور
المسلمين حتى بلغ به كثرة التفكير فيهم والخوف عليهم حدًّا حمله على
التفكير في السير نحو العراق ليكون قريبًا منهم ، وهذا دليل على
مقدار ما يعاني من الهم من أجلهم ، ولكنه كان مطبّقًا تمام التطبيق
لأمور الإسلام في السلم والحرب ، فلم يكن يبت في شيء مهم إلا بعد
جمع أهل الحل والعقد والتشاور معهم .

وهذا مثل مهم لقيام الشورى بين الخليفة وأهل الحل والعقد فلقد
كان رأي الخليفة أن يخرج بنفسه فيكون بين البصرة والكوفة فيستحث
الناس ، ويمد الجيش بالجنود ، وبعد مداولة الرأي عدل عمر عن رأيه
إلى الرأي الذي عرضه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير
ابن العوام وغيرهم من أهل الرأي ، وأيده على بن أبي طالب وشرحه
بجلاء ، مما جعل أمير المؤمنين يطمئن لهذا الرأي رضي الله عنهم
أجمعين .

وهكذا تظهر قيمة الشورى ، حيث تفتّق أذهان أهل الرأي بعد
توفيق الله تعالى عن الآراء السديدة التي تستريح لها نفوس المؤمنين
الصادقين .

هذا وفي كلام علي بن أبي طالب دليل على رسوخ اليقين في
قلوب الصحابة رضي الله عنهم بأن الله تعالى منجز وعده بالتمكين

(١) تاريخ الطبري ١٢٢/٤ - ١٢٤ .

لهذا الدين في الأرض ، وهذه العقيدة تُعطي النفوس طمأنينة عالية وإقداماً عظيماً في قتال الأعداء ، وإنما الذي يخالج النفوس هو الخوف من وقوع المجاهدين بشيء من معصية الله تعالى ، فتُنزَع منهم هذه الكرامة العظيمة ، وتُكْتَب على يد غيرهم ، وهذا هو الذي كان يخشاه عمر رضي الله عنه كثيراً ويذكرُ به جنده وقادته .

كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان :

هذا وقد بعث أمير المؤمنين كتاباً جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرّاً فتؤذيهم ، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلنهم غيضة ، فإن رجلاً من المسلمين أحب إليّ من مائة ألف دينار والسلام عليك^(١) .

ومع هذه الوصايا الغالية لا بد أن نقف وقفات سريعة لنستشف مغزاها وعمق أثرها في تقويم السلوك ونجاح العمل .

ف نجد عمر رضي الله عنه يقول لقائده « ولا توطئهم وعرّاً فتؤذيهم » يعني فليس المهم في مسير الجيوش أن تصل إلى أهدافها في وقت قياسي وإن أضرب بأفرادها ، إنما المهم أن تصل وهي محتفظة بقوتها وحيويتها وهذا يرجع إلى سياسة القائد وحزمه في اغتنام الفرص والجدّ في الأمر من غير إيذاء ولا إنهاك .

(١) تاريخ الطبري ١١٤/٤ - ١١٥ من روايته عن محمد بن إسحاق .

ونجده يقول « ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم » وذلك أن من أقوى العلاقات بين القائد والجنود أن يشعروا بأن قائدهم حريص على مصلحتهم ، وأنه يسير بهم بالعدل والرحمة ، وأنه حريص على أداء الحقوق إلى أصحابها في وقتها المحدد ، مما يجعلهم يشكرون فيضاعفون من جهدهم في العمل ، أما منعهم حقوقهم فإنه قد يؤدي إلى كفر النعمة ، فينسيهم اهتمامهم بحقوقهم المنوع ما كان من معروف سابق ، وذلك يؤدي إلى اختلال العمل .

إن من أهم عوامل النجاح في العمل أن يكون فكر العاملين منصرفاً إلى محاولة النجاح والتفوق في عملهم ، فإذا تأخر أداء حقوقهم المالية أو منعوا منها فإن جزءاً من فكرهم ينصرف إلى هذا الهم الحاضر ، وذلك يؤدي إلى الفشل في أداء العمل ، واهتزاز الثقة والولاء بينهم وبين المسئول عنهم ، الذي كان سبباً في منع حقوقهم أو تأخيرها ، وذلك من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من باب الاحتياط للعمل والرفقة بالمسلمين ، وإلا فمن المعلوم أن الدافع الأساسي للمجاهدين هو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

ونجد أمير المؤمنين يقول في وصيته « ولا تدخلنهم غيضة فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مائة ألف دينار » والغيضة هي الشجر الملتف ، وإنما نهاهم عمر عن نزول الغياض لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو .

فهي وصية بأخذ الحيطة والحذر للمسلمين حتى لا يؤخذوا على غرة ، وماداموا في وسط بلاد الكفار فهم معرضون لغدر الأعداء في

كل لحظة ، فمن الاحتراس والحفاظ على أرواح المسلمين أن يبعدهم القائد عن مواطن الخطر في حال أمنهم وراحتهم .

إن تسيير الجيوش الإسلامية وتعريضها للأهوال ليس من أجل جباية الأموال ، ولا من أجل توسيع الملك ، فإن بقاء المسلمين في راحة وطمأنينة أحب إلى عمر من أموال الدنيا ، وإنما بُعِثَتْ تلك الجيوش لتحقيق الهدف الأعلى من وجود الإنسان في الأرض وهو أن يُعْبَدَ الله وحده ، وأن لا ترفع فوق الأرض غير راية التوحيد ، وأن لا تقوم في الأرض غير دولة الإسلام ، ومن أجل هذا الهدف السامي تهون النفوس وتعلو الهمم .

فأما حين تذهب النفوس بسبب تفريط من القائد دون أن تحقق شيئاً من أهدافها فهو خسارة في ميزان الدول والمبادئ وإن كان بالنسبة لأفراد الجيش الإسلامي لا يعتبر كذلك لأنهم شهداء .

هذا وقد كتب عمر رضي الله عنه إلى والي الكوفة عبد الله بن عتبان مع ربيعي بن عامر : أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا^(١) ، فأني قد كتبت إليه بالتوجه من «الأهواز» إلى «ماه» فليوافوه بها وليسر بهم إلى «نهاوند» وقد أمرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن ، وقد كتبت إلى النعمان : إن حدث بك حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان ، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نُعَيْم بن مقرن^(٢) .

(١) يعني الثلاثين كما قال علي رضي الله عنه واستقر عليه أمر الشورى .

(٢) تاريخ الطبري ١٢٧/٤ من روايته عن سيف بن عمر .

هذا ومن خطة الحرب التي وضعها عمر ونفذها النعمان وقادته رضي الله عنهم وَضَعُ حَامِيَاتٍ مِنْ جِيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنَافِذِ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى نِهَاوَنْدَ لِمَنْعِ أَمْدَادِ الْفَرَسِ ، وَلِحِمَايَةِ جِيْشِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا سَارَ إِلَى نِهَاوَنْدَ ، وَقَدْ نَجَحَتْ الْخُطَّةُ حَيْثُ وَقَفَ إِمْدَادُ الْفَرَسِ بِالْجِيُوشِ وَسَارَ النُّعْمَانُ بِجَيْشِهِ وَهُوَ آمِنٌ مِنْ خَلْفِهِ .

مغامرة من طليحة الأسدي :

وذكر الطبري في روايته عن سيف بن عمر أن النعمان قد استقر بجيشه في مكان يقال له « الطَّزَّر » لتجتمع إليه الجيوش الإسلامية ، وأنه حينما عزم على المسير بعث طليعةً استكشافية مكونة من طليحة ابن خويلد الأسدي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وعمرو بن أبي سلمى ، ليخبروا له الطريق إلى نهاوند ، فلما ساروا يوماً وليلة رجع عمرو بن أبي سلمى فقالوا : مارجعك ؟ قال : كنت في أرض العجم ، وقتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضاً عالمها ، ومضى طليحة وعمرو بن معدي كرب حتى إذا كان من آخر الليل رجع عمرو فقالوا : مارجعك ؟ قال : سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً ، وخفت أن يؤخذ علينا الطريق ، ونفذ طليحة ولم يحفل بهما ، ومضى حتى انتهى إلى نهاوند ، ولما استبطأه الناس ظن بعضهم أنه قد ارتد مرة ثانية ، فلما أقبل عليهم كبروا ، ولما علم بظنهم أنكر عليهم ذلك ثم دخل على النعمان فأخبره أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد (١) .

وهذا موقف عظيم من مواقف الجسارة والإقدام يُذكر لطليحة إضافة إلى موقف مماثل قام به في القادسية ، ولئن كان وقع في أيام

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٧ - ١٢٨ .

الردة في الفتنة وارتكب ذنباً عظيماً ، فإنه قد تاب إلى الله تعالى ،
وقدّم لأئمة الإسلام ولدينه تضحيات لم يقم بها أحد مثله فيما يتعلق
بمهمة استشكاف أرض العدو .

ولئن كان عمر رضي الله عنه قد أوصى قادة المسلمين بعدم
الاعتماد عليه وعلى أمثاله من قادة المرتدين في مهمات قيادية، فإن
ذلك لا يعني اتهامهم في دينهم ولكنه من باب الاحتياط للمسلمين،
وهذه سنة يجب أن يتنبه لها المسئولون عن الأمة، وذلك بأن لا يسندوا
المناصب القيادية لمن سبق لهم أن شاركوا في مذاهب هدامة يُقصد بها
القضاء على وجود الإسلام، وإن ظهرت توبة هؤلاء وحسنت أعمالهم .
وصول المسلمين إلى نهاوند :

وذكر الطبري في سياق روايته أنه بعد أن تأكد النعمان من سلامة
الطريق إلى نهاوند نادى بالرحيل وأمر المسلمين بالتعبية وسار نحو
نهاوند، فوافى جيش الفرس قرب نهاوند وهم على تعبيتهم وأميرهم
الفيروزان، فلما رآهم النعمان كبر، وكبر الناس معه فتزلزت الأعاجم^(١) .

فـ « الله أكبر » سلاح عظيم من أسلحة الرعب التي يزلزل الله
بها قلوب الكفار ، فهي سلاح معنوي يسبق السلاح المادي ويمهد له
بخلع قلوب الأعداء وإرهابهم .

وهو سلاح ماضي المفعول إذا صدر من قلوب مؤمنة تعتقد بما
تقول ، وتستحضر عظمة الله سبحانه الذي بيده كل شيء فإذا كان
الكفار قد اعتزوا بكثرة عددهم وقوة عددهم فالله جل وعلا أكبر منهم
ومن كل مخلوق .

(١) تاريخ الطبري ١٢٨/٤ - ١٢٩ .

إن استصحب الشهور بعظمة الله تعالى وأن كل مافي هذا الكون في قبضته جل وعلا يجعل المؤمنين المتقين يحتقرون جمع الأعداء وقوتهم مهما بلغوا في ذلك، وهذا الشعور يجعلهم يقدمون على قتالهم بقلوب مليئة بالإيمان ونفوس مفعمة بالثقة واليقين بنصر الله تعالى .

أما الكفار فإنهم لتجاربهم السابقة مع المسلمين أصبحوا يفزعون من تكبير المؤمنين، لما كان يعقب ذلك من هجوم صاعق لا يقبل التراجع، وإقدام على الموت لا يقبل التردد، فأصبح ذلك الهجوم المرعب مقترناً برفع شعار التكبير، فصار له مفعول الهجوم الساحق، ولذلك تزلزل الفرس لما سمعوا التكبير من المسلمين مع أن المعركة لم تبدأ بعد . قال : فأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال وبضرب الفسطاط ، فَضْرَبَ وهو واقف ، فابتدأه أشراف أهل الكوفة وأعيانهم ، فسبق إليه يومئذ عدة من أشراف أهل الكوفة ، وقد ذكر الإمام الطبري في روايته أسماء أربعة عشر منهم (١) .

وهذا الخبر قد يبدو صغيراً لا يستحق أن ينوه به ، ولكنه في الحقيقة يكشف عن جانب من طبيعة ذلك المجتمع العالي ، فالجيوش الإسلامية آنذاك ليس فيها مقاتلون وخدم أتباع ، كما هو الحال في جيوش الكفار، وقد سبق لنا مثال لذلك في القادسية حيث كان مع جيش الفرس مثلهم من الأتباع الخدم ، أما جيش المسلمين فإنهم كلهم مقاتلون ، ويتنافسون في أعمال الخدمة لأنهم يعتبرونها أعمالاً صالحة يثابون عليها عند الله تعالى .

(١) تاريخ الطبري ١٢٩/٤ .

فهؤلاء أشرف أهل الكوفة يتنافسون في بناء فسطاط القيادة وهذا كما يدل على مستوى عالٍ من خلق التواضع ، وعلى رغبة عالية في فعل الخير والعمل الصالح ، فإنه يدل بمضمونه على علو مكانة قائدهم في نفوسهم ، فليله درهم ، ما أعظمهم قادة وما أعظمهم جنودا !

مناوشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي :

قال : وأنشب النعمان بعد ما حط الأثقال القتال ، فاقتتلوا يوم الإربعاء والخميس وذلك لسبع سنين من إمارة عمر في سنة تسع عشرة وأنهم انحجزوا في خنادقهم يوم الجمعة ، وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله ، والأعاجم بالخيار لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج ، فاشتد ذلك على المسلمين ، وخافوا أن يطول أمرهم وسرهم أن يناجزهم عدوهم ، حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمع أهل الرأي من المسلمين ، فتكلموا وقالوا : نراهم علينا بالخيار ، وأتوا النعمان في ذلك فأخبروه فوافقوه وهو يروى في الذي روي فيه ، فقال : على رسلكم لا تبرحوا ، وبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي في الحروب ، فتوافوا إليه فتكلم النعمان فقال : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شأوا ، ولا يقدر المسلمون على إنغاضهم - يعني تحريكهم - وانباعثهم قبل مشيئتهم ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من الذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج فما الرأي الذي به نُحْمِشُهُمْ ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل ؟ فتكلم عمر ابن نُبَيٍّ - وكان أكبر الناس يومئذ سنًا ، وكانوا إنما يتكلمون على

الأسنان - فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة ، فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم ، وقاتل من أتاك منهم ، فردوا عليه جميعاً رأيته ، وقالوا : إنا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا .

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تخفهم ، فردوا عليه جميعاً رأيته وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا .

وتكلم طليحة فقال : قد قالوا ولم يصيبا ما أرادا ، وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدبة ، فيحذقوا بهم ، ثم يرموا لينشبوا القتال ويُحْمِشُوهم ، فإذا استَحْمِشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطرادا ، فإننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وإننا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب .

هذا وقد أمر النعمان بتنفيذ هذه الخطة من تلك الساعة مما يدل على أنها حازت على استحسانهم وموافقتهم كما سيأتي (١) .

وهذه خطة من النعمان يُحمد عليها أن جمع أهل الرأي والنجدة واستشارهم في الخروج من تلك المشكلة ، وهذه الطريقة التي تقوم على الالتزام بمبدأ الشورى من أعظم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين في حروبهم وإداراتهم .

وقد أدلى بعضهم برأيه ، وتم نقده ورده ، إلى أن استقر الرأي على ما طرحه طليحة بن خويلد الأسدي ، وكان موفقاً فيما رأى .

(١) تاريخ الطبري ١٢٩/٤ - ١٣٠ .

وسيتبين لنا من أحداث المعركة كيف أن هذا الرأي كان مفتاح الالتحام الحاسم مع الأعداء ، وهو رأي سيظل حبيسًا في فكر صاحبه لو أن القائد استبدَّ برأيه ، أو قصره المشورة على أناس محدودين .

ومن خلال دراسة هذه المشورة يتبين لنا أنهم كانوا يُخطئون الرأي المجانب للصواب ، ولا يرون في ذلك غضاضة ، ولا تحملهم المجاملة والمداراة على السكوت عن الخطأ أو البحث عن الحلول الوسط ، بل كانوا صرحاء في نقد الآراء ، ولم يكن من انتقد رأيه وردَّ يحمل على من انتقده ، ولا يدفعه الغيظ منه على أن يخطئ رأيه وإن كان صوابًا ، ذلك أن رائدهم جميعًا هو طلب مرضاة الله تعالى ونصرة الإسلام ، فهم يفرحون بالعثور على الرأي الصائب وإن كان ممن انتقدهم وخطأ رأيهم .

وبهذا السلوك القويم نجحوا في حياتهم السلمية والحربية .

قال : فأمر النعمان القعقاع بن عمرو - وكان على المجردة^(١) ففعل ، وأنشب القتال بعد احتجاز العجم ، فأغضهم - يعني حركهم للقتال - فلما خرجوا نكص ، ثم نكص ثم نكص ، واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا : هي هي ، فخرجوا فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب ، وجعلوا يركبونهم حتى أرز القعقاع إلى الناس ، وانقطع القوم عن حصنهم بعض الانقطاع والنعمان بن مقرن والمسلمون على تعبيتهم في يوم جمعة في صدر

(١) يعني الخيل التي جردت وانتخبت لتكون في المقدمة .

النهار وقد عهد النعمان إلى الناس عهده ، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم ، ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي ، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض ، ثم قالوا للنعمان : ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس فما تنتظر بهم؟ ائذن لنا في قتالهم ، فقال لهم النعمان : رويدا رويدا ، قالوا ذلك مرارا فأجابهم بمثل ذلك مرارا ، رويدا رويدا ، فقال المغيرة : لو أن هذا الأمر إلي علمت ما أصنع ، فقال : رويدا ترى أمرك ، وقد كنت تلي الأمر فتحسن فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو في المكث مثل الذي نرجو في الحث ، وجعل النعمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقي فيها العدو ، وذلك عند الزوال وتفريق الأفياء ومهب الرياح ، وجاء في رواية حدير: إنه والله ما منعني أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهب الأرواح ويطيب القتال (١) .

وعملُ النعمان هذا يعتبر مثلاً لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الاهتمام بسنة رسول الله ﷺ ومنهجه ، وتيمنهم باتباع ذلك ، وقد كان مثلكم الأعلى في ذلك أبو بكر رضي الله عنه حيث كان أحرص المسلمين على التقيد بالسنة ، وظهر للصحابة بركة ذلك وعواقبه المحمودة ، ثم كان عمر رضي الله عنه كذلك من بعده .

(١) تاريخ الطبري ١١٩/٤ .

فالنعمان لا يزال على ذكر من ذلك، فكان يتربص بالمسلمين حلول الساعة التي كان رسول الله ﷺ يحب أن يبدأ القتال بها ، وهي ساعة الزوال ، وذلك إذا لم يبدأ القتال في الصباح .

وإن في إجابة النعمان للمغيرة بن شعبة مثلاً للأدب الإسلامي الرفيع فهو مع كونه قائد الجيش لم يعنفه حين اعترض على رأيه ، وهذا يدل على تواضعه وسماحته ، بل إنه أثنى عليه بالإحسان في ولايته ، وبين له أن ما يرجوه في الإسراع من النكاية بالأعداء ، وتلمس أسباب النصر يرجوه هو بالتأني ، وأنه إنما لاحظ بالتأني أمراً هو فوق رأيه ورأي المغيرة وغيره ، وهو الاقتداء بالنبي ﷺ .

خطبة للنعمان :

قال : فلما كان قريباً من تلك الساعة - يعني ساعة الزوال - تحشش النعمان - أي تحرك - وسار في الناس على بردون أحوى - يعني قصير - قريب من الأرض ، فجعل يقف على كل راية ويحمد الله ويشني عليه ، ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين وما وعدكم من الظهور ، وقد انجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره^(١) ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله منجز وعده ، ومتبع آخر ذلك أوله ، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ، فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه ، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم والذي عليهم في هزيمتكم وذلكم ، وقد ترون من أنتم بإزائه

(١) يعني أوائله ومقدماته .

من عدوكم ، وما أخطرتم وما أخطروا لكم ، فأما ما أخطروا لكم
فهذه الرثة - يعني المتاع - وماترون من هذا السواد - يعني البلاد -
وأما ما أخطرتم فدينكم وبيضتكم - يعني دولتكم وقوتكم - ولا سواء
ما أخطرتم وما أخطروا ، فلا يكوننَّ على دنياهم أحمى منكم على
دينكم ، واتقى الله عبدٌ صدق الله ، وأبلى نفسه فأحسن البلاء ،
فإنكم بين خيرين منتظرين ، إحدى الحسينين ، من بين شهيد حيٍّ
مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولم
يكلَّ قرنه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه ، وذلك من
الملازمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلَّط على
ما يليه ، فإذا قضيت أمري فاستعدوا فإنني مكبر ثلاثا ، فإذا كبرت
التكبير الأولى فليتها من لم يكن تهيأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه
سلاحه ، وليتأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثة فإنني حامل إن شاء
الله فاحملوا معاً ، اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجعل النعمان
أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك (١) .

هذا وإن خطبة النعمان هذه تعتبر من عيون الخطب الحربية ، وقد
اشتملت على مواعظ وتوجيهات عالية ، نوجز التعليق على بعضها
فيما يلي :

١ - ذكَّر النعمان ذلك الجيش بوعد الله إياهم بالنصر ، وذلك
يجعلهم متفائلين بأن المعركة ستكون لصالحهم ، ولا شك أن من دخل
المعركة وهو واثق من النصر سيكون حماسه وقوته أعظم بكثير ممن
دخلها وهو متردد خائف .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٣٠ - ١٣٢ .

٢ - ذكّرهم بما سيفقده الأعداء إذا انهزموا ، وما سيفقده المسلمون إذا انهزموا .

فالأعداء سيفقدون مظاهر الدنيا ومتاعها الزائل ، أما المسلمون فإنهم يخاطرون بدينهم الذي هو المصدر الوحيد للنور الإلهي في الأرض ، ودولتهم التي لا يوجد على ظهر الأرض من يمثل الحق غيرها ، ولا سواء بين النتيجة .

وفي هذا تذكير لهم بهدفهم الأسمى من وراء حروبهم المتواصلة ليدلوا كل طاقتهم في الدفاع عن هذا الهدف .

٣- ذكّرهم بإحدى الحسينين : إما النصر على الأعداء ، أو الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وذلك إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢] يعني هل تنتظرون بنا أيها الأعداء في جهادنا من النتائج إلا أن نظفر بإحدى التيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حُسْنِي النتائج في مجالي الحياة والموت ؟ فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء ، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة وكلاهما خير وسعادة .

٤ - ذكّرهم بلزوم بذل الطاقة في الجهاد ، وذلك بأن يشعر المجاهد بأنه مسئول عن قتال من أمامه من الأعداء ، وأن لا تنازعه نفسه إلى الاتكال على أخيه المجاور له فيجمع عليه صد العدو المقابل لهما فتضعف قوّته بذلك .

ابتداء المعركة الفاصلة :

قال الطبري في سياق الرواية المذكورة : فلما فرغ النعمان من التقدم إلى أهل الموقف ، وقضى إليهم أمره رجع إلى موقفه ، فكبر الأولى والثانية والثالثة والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة ، يُنحّي بعضهم بعضاً عن سنّهم - يعني يحاول كل واحد أن يوسع مجاله الذي يقاتل فيه فداء لأخيه - وحمل النعمان وحمل الناس ، وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب والنعمان معلّم ببياض القباء والقلنسوة ، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كان أشد قتالاً منها ، فقتلوا فيها من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة وما يزلق الناس والدواب فيه ، وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء ، فرلق فرس النعمان في الدماء فصرعه ، وأصيب النعمان حين زلق به فرسه وصرع ، وتناول الراية نعيم بن مقرن قبل أن تقع ، وسجى النعمان بثوب ، وأتى حذيفة بالراية فدفعها إليه ، وكان اللواء مع حذيفة ، فجعل حذيفة نعيم بن مقرن مكانه وأتى المكان الذي فيه النعمان ، فأقام اللواء ، وقال له المغيرة : اكنموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكيلاً يهنّ الناس .

واقتتلوا حتى إذا أظلمهم الليل انكشف المشركون وذهبوا والمسلمون مُلْظُونٌ بهم متلبسون ، فَعُمِّيَ عليهم قصدهم ، فتركوه وأخذوا نحو اللّهب (١) الذي كانوا نزلوا دونه بإسيبذهان فوقعوا فيه ، وجعلوا لايهوي منهم أحد إلا قال « وايه خُرد » فسمي بذلك « وايه خرد »

(١) اللهب المكان العميق .

إلى اليوم ، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون ، سوى من قُتل في المعركة أعدادهم ولم يفلت إلا الشريد (١) .

وهكذا جاء في هذه الرواية أن النعمان رضي الله عنه زلقت به فرسه فصُرع ، وجاء في رواية ابن إسحاق وحدير أنه أصابته نَشَابَةٌ من سهام العدو فقتلته (٢) ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنه أصابه السهم وزلقت فرسه فصُرع على الأرض .

وهكذا استجاب الله تعالى دعاءه فتقبله شهيداً ذلك اليوم والمعركة على أشدها .

ولقد ألهم الله تعالى أمير المؤمنين عمر حينما عين خليفة النعمان من بعده ، وكأنه كان يتوقع استشهاد ، ولم يكن يفعل ذلك في أكثر المشاهد ، بل كان يعين قائدا واحدا ، وقد يعين القائد من يخلفه وقد لا يفعل .

وهكذا انتهت هذه المعركة المثيرة التي استمر المسلمون فيها في الضرب والطعان من زوال الشمس إلى أن أظلم الليل ، وكانت بضراوتها وكثافة قتلاها من المشركين تعادل معركة دامت عدة أيام .

وهذا يدل على أن المسلمين قد بذلوا طاقة عظيمة ، وذلك لإخلاصهم ورغبتهم الأكيدة في إعزاز دينهم وحماية دولتهم .

وإن مما يشير العجب في نهاية المعركة أن الفرس حينما هُزموا عند ظلام الليل لم يلجئوا إلى بلادهم وحصونهم ، وهي ليست منهم

(١) تاريخ الطبري ١٣٢/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١١٥/٤ - ١١٩ .

ببعيد، والمسلمون لم يطوقوهم من الخلف ، ولم يكن ذلك متيسراً
للمسلمين وهم خمس عدد الأعداء ، فلماذا تركوا طريق بلادهم
واتجهوا نحو اللّهب، وهو حسب سياق الرواية منخفض عميق مهلك
لمن وقع فيه، فلماذا اتجهوا نحو هذا المكان المهلك ليموت فيه مائة ألف
أو يزيدون ؟

هل كان باستطاعة المسلمين وهم بذلك العدد المحدود أن يتولوا
قتال من يليهم من الأعداء وأن يسوقوا بقيتهم قسراً ليتردّوا في ذلك
المكان المهلك؟

ثم ما الذي ألجأ الصف الثاني وما بعده إلى السقوط وقد سمعوا
صراخ الصف الأول ورأوا مصارعهم ؟ ألم يكن بإمكانهم التراجع
وتحذير من بعدهم من المصير المشؤم ؟

ثم ما الفارق بين هذا اللقاء وما سبقه من لقاءات حربية حيث كان
الأعداء يخرجون لقتال المسلمين متى أرادوا فإذا أحسوا بالهزيمة
تراجعوا ولجئوا إلى خنادقهم وحصونهم ؟ فما بالهم ذلك اليوم لم
يفعلوا ذلك؟

الحقيقة أن المتأمل في واقع هذه المعركة ومعركة اليرموك المشابهة
لها يترجح لديه أن هناك قوةً عظيمة غير منظورة تولت دفع تلك
الكتلة الهائلة من البشر بقوة وعنف حتى أوقعتهم في المنخفض
السحيق .

إن الله سبحانه يمد المؤمنين عند اشتداد الموقف بالملائكة عليهم
السلام ، وقد تقدم لنا في عرض مواقف اليرموك أن أبا عبيدة رضي

الله عنه ورجلاً آخر رأيا في النوم ليلة المعركة أن الملائكة يقاتلون مع المؤمنين .

وفي كلام علي بن أبي طالب السابق ما يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعتقدون بأن الملائكة تقاتل مع المسلمين حيث يقول «وأيده - يعني أيد الله جند الإسلام - بالملائكة حتى بلغ ما بلغ» أما في عهد النبي ﷺ فإن أمر مشاركة الملائكة واضح وصريح كما جاء في الآيات التي نزلت في معركة بدر والأحزاب وحين .

وبهذا يتبين لنا أن من المرجح أن الله سبحانه أيد المؤمنين في نهاوند بالملائكة عليهم السلام فقصوا في الليل على بقية الكفار الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين بالنهار ، بعد ما بذل المسلمون جهدا عظيما في قتال الأعداء لم يسبق له مثيل .

ومما يؤيد ذلك أيضاً أن الرواة لم يذكروا أن المسلمين ألجئوا الكفار إلى ذلك المنحدر ، بل ذكروا أنهم عموا عن قصدهم ، فلم يهتدوا إلى طريق مدينتهم وهذا إذا كان متصوراً وقوعه من أفراد منهم فإنه لا يتصور مما يزيد على مائة ألف .

مواقف لبعض المجاهدين في نهاوند :

من المواقف التي تستحق أن يشار إليها ماجرى من سماك بن عبيد العبسي ، وقد أخرج خبره الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه عمن حدثهم من قومهم قال : بينما نحن محاصرو أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم فقاتلونا فلم نلبثهم أن هزمهم الله ، فتبع سماك بن عبيد العبسي رجلا منهم معه ثمانية نفر على أفراس

لهم ، فبارزهم فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم ، ثم حمل على الذي كانوا معه ، فأسره وأخذ سلاحه ، ودعا له رجلاً اسمه «عبد» فوكله به ، فقال : اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض وأؤدّي إليه الجزية ، وسلني أنت عن إيسارك ماشئت ، وقد مننت عليّ إذ لم تقتلني ، وإنما أنا عبدك الآن ، وإن أدخلتني على الملك وأصلحت ما بيني وبينه وجدت لي شكراً ، وكنت لي أخاً ، فخلّى سبيله وآمنه ، وقال من أنت ؟ قال : أنا دينار - والبيت منهم يومئذ في آل قارن - فأتى به حذيفة ، فحدثه دينار عن نجدة سماك وماتل ونظّره للمسلمين ، فصالحه على الخراج (١) .

هذا وإن ما يتضمن هذا الخبر من شجاعة سماك العبيسي ليعتبر مثلاً على جرأة المسلمين في الحروب ، فإن إقدام سماك على مطاردة تسعة من الفرسان قد يعرض حياته للخطر فيما لو اجتمعوا جميعاً لمقاومته ، وهو أمر محتمل ، ولكن هذا البطل وأمثاله لا يضعون في حسابهم هذا الاحتمال ، لأن الواحد منهم إنما خرج يريد الشهادة ، فإما حصلت له على أيدي هؤلاء ففاز فوزاً عظيماً ، وإما قتلهم أو هزمهم فقد ظفر بإحدى الحسينيين فهو موقن بالربح العظيم سواء ظفر بالشهادة أو بالنصر .

ولقد كان من نتائج هذه المطاردة المباركة قتل ثمانية من الأعداء واستسلام قائدهم ، وماتم بعد ذلك من المصالحة بينه وبين المسلمين على الإقليم الذي كان تحت ولايته .

(١) تاريخ الطبري ١٣٥/٤ .

ومن المواقف المذكورة ما قام به القعقاع بن عمرو من قتل قائد الفرس «الفيروزان» ، وكان القعقاع على مقدمة نعيم بن مقرن الذي تولّى مهمة مطاردة من فرّ من المعركة وقَدَّم أمامه القعقاع بن عمرو فأدرك القعقاع الفيروزان في ثنية همذان ، وكانت مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا ، فلم يستطع اجتيازها بدابّته فنزل منها ، وهرب في الجبل فنزل القعقاع وتبعه حتى قتله ، وقال المسلمون إن لله جنوداً من عسل^(١) .

وهكذا قضى القعقاع على أحد كبار قادة الفرس فكفى المسلمين شره بعد ذلك ، وهو عمل جليل يضاف إلى بطولاته الكثيرة التي مر ذكر بعضها .

وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر :

هذا ما كان من شأن المسلمين في نهاوند ، أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان يستنصر للمسلمين ويدعو لهم كما جاء في رواية زياد بن حدير عن أبيه أن أمير المؤمنين في المدينة يستنصر لهم ويدعو لهم مثل الجُبَلَى^(٢) .

وهذا التشبيه يدل على ما كان يعاني منه أمير المؤمنين من الهمّ الشديد والتخوف على المسلمين

وإذا كان عمر رضي الله عنه كذلك فإن عموم الصحابة رضي الله

(١) تاريخ الطبري ١٣٢/٤ من رواية سيف بن عمر .

(٢) تاريخ الطبري ١٢٠/٤ .

عنهم في المدينة قلوبهم مع إخوانهم في نهاوند ودعائهم لهم متواصل ، ولا شك أن لذلك الدعاء المبارك أثراً في نزول نصر الله تعالى على عباده المؤمنين .

إنهم يؤمنون إيماناً راسخاً بأن الأمر بيد الله تعالى وحده . والدعاء الخالص إذا صدر من قلوب مؤمنة مخلصة مستحضرة عظمة الله تعالى وضعف خلقه فإنه سبب مهم من أسباب النصر على الأعداء .

ولهذا فإن المسلمين الذين حضروا ميدان المعركة كانوا ثلاثين ألفاً ، ولكن الذين شاركوا في المعركة بدعائهم الصالح كانوا عشرات الألوف من المسلمين في المدينة وسائر أمصار الإسلام .

وإن شعور المسلم وهو يتوجه إلى ميدان المعركة بأن الذين سيشاركونه بقلوبهم وابتهاهم إلى الله تعالى هم عموم المسلمين في كل أقطار الأرض . . إن شعوره هذا يجعله يدخل المعركة وهو واثق من نصر الله تعالى ، إذا تجرد المجاهدون من عوائق النصر .

أما وقع خبر المعركة على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان مزيجاً من الفرح بالنصر ، والبكاء على فراق الأحبة من الشهداء . وقد أخذ به الهم مأخذه في تلك الليالي حتى بلغه خبر انتصار المسلمين ، يصور ذلك ماجاء في إحدى الروايات التي أخرجها الإمام الطبري وفيها « وتململ عمر تلك الليلة التي كان قدّر لقاءهم - يعني لقاء المسلمين مع أعدائهم - وجعل يخرج ويلتمس الخبر فيبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه ، فرجع إلى المدينة ليلاً ،

فمر به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة فقال : يا عبد الله من أين أقبلت ؟ قال : من نهاوند ، قال : ما الخبر ؟ قال : الخبر خير فَتَحَ الله على النعمان واستشهد ، واقتسم المسلمون في نهاوند فأصاب الفارس ستة آلاف ، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة ، فدخل الرجل فبات فأصبح فحدث بحديثه ونمى الخبر حتى بلغ عمر وهو فيما هو فيه ، فأرسل إليه فسأله فأخبره ، فقال : صدق وصدقت ، هذا عثيم يريد الجن وقد رأى يريد الإنس ، فقدم عليه «طريف» بالفتح بعد ذلك فقال : ما الخبر ؟ قال : ما عندي أكثر من الفتح خرجت والمسلمون في الطلب وهم على رجل - يعني أنهم جادون في مطاردة أعدائهم - وكتمه إلا ما سره - يعني أنه أخبر بما يسره من الفتح وكتم خبر استشهاد النعمان لتوقعه بأنه سيتأثر من ذلك - (١) .

وفي هذا الخبر تصوير لما كان يعاني منه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من الهم المتواصل حول نتائج تلك المعركة الحاسمة إشفافاً منه على المسلمين ، حتى وافق ليلة المعركة قمة اشتداد الهم عنده .

وفي هذا الخبر مثل من تسخير الله سبحانه ما شاء من خلقه ليكونوا في خدمة أوليائه ، فلما كان الجن أسرع من الإنس في قطع المسافات حمل بريد الجن الخبر مع بريد الإنس فسبقه بعدة أيام ، وكان في تلك الأيام راحة وطمأنينة للمؤمنين ، خاصة أمير المؤمنين عمر الذي كان أبلغهم همّاً وأكثرهم تفكيراً في ذلك الأمر .

(١) تاريخ الطبري ١٣٤/٤ .

لقد كان مسلمو الجزن في خدمة إخوانهم من مسلمي الإنس من غير أن يسعى لذلك المسلمون تكريماً من الله تعالى لأوليائه المؤمنين .

وهكذا بلغ خبر الفتح أمير المؤمنين عمر ، ولم يبلغه خبر استشهاد النعمان بن مقرن لأن طريقاً المرسل بذلك أخبر أمير المؤمنين بما يسره من الفتح وطوى عنه ما يؤلمه من خبر الشهداء ، ولكن خبر الشهداء بلغ أمير المؤمنين مع السائب بن الأقرع الذي كان موثقاً بقسمة الغنائم ، وقد ذكر الإمام الطبري خبر ذلك من رواية السائب قال : قدمت على عمر بن الخطاب فقال : ما وراءك ياسائب ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان ابن مقرن رحمه الله - فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال : ثم بكى فنشج حتى إني لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتفه - يعني مجتمع الكتفين - قال : فلما رأيت مالقي قلت : واللله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعرف وجهه ، فقال : المستضعفون من المسلمين ! لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ! (١) .

وفي هذا الخبر موقفان جليلان ؟ أحدهما شفقة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على رعيته وحزنه على مصابهم ، خاصة من كانوا مؤهلين للقيادة ، فقد بكى بكاء شديداً على النعمان بن مقرن رضي الله عنه حين علم باستشهاده ، مع علمه بفضل الشهادة ، وأنها أمل المؤمنين الصادقين ، لكنه يعلم أن أمور الأمة إنما تنتظم بالقادة الأكفاء ،

(١) تاريخ الطبري ١١٦/٤ .

فلذلك حزن هذا الحزن الشديد على فقد النعمان كما حزن قبل ذلك على فقد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين .

ومن هذا الباب ماجاء في رواية ابن أبي نجيح : قال عمر بن الخطاب لجلسائه : تمنّوا ، فتمنّوا ، فقال عمر بن الخطاب : لكني أتمنى بيتا ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح (١) .

واختيار عمر للولاة والقادة الأكفاء كان سبباً مهماً من أسباب نجاحه في الحكم واستقرار الأمور في عهده .

أما الموقف الثاني فهو في تأثره لما قال له السائب : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجلٍ يعرف وجهه ، حيث قال المستضعفون من المسلمين ! لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ! فقد أدرك حالاً خطيرة هذه الفهم الذي فهمه السائب ، وهو أن الذين يُنظر لهم ، ويُهتَمُّ بأمر وجودهم أو فقدهم هم وجوه الناس المعروفون لدى الخليفة وولاته وقادته .

ولما كان في ذلك الخوفُ من الرجوع إلى عرف الجاهلية في التمييز بين الناس في الحقوق مع تساويهم في الأداء ، وربط هذه الحقوق بمدى قربهم من القادة والولاة . . لما كان في كلام السائب نوع من التلميح لذلك غير المتعمد أنكره عمر بشدة وحزم ، وربط الأمر كله بعلم الله تعالى ، فهو الذي خلق عباده هؤلاء ، ومن عليهم بالهداية ثم أكرمهم بالشهادة ، وهو الذي يتولى مكافأتهم على ما قدموا من عمل في الآخرة .

(١) طبقات ابن سعد ٤١٣/٣ .

ثم أكد هذا المعنى بالتقليل من شأن معرفة عمر بهم ، وأن معرفته
ببعض المسلمين لاتغني عنهم من الله شيئاً، وجهله ببعضهم لا يضرهم
عند الله تعالى .

وفي التعبير بقوله « ابن أم عمر » تواضع جليل من رجل كبير
فإن الانتساب إلى الأم يدل على التواضع حيث إن من عادة العرب أن
يفتخروا بأبائهم .

وإنه له أسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث قال للرجل الذي ارتعد
خوفاً لما جاء يكلمه « هوّن عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة
من قريش كانت تأكل القديد » (١) .

ولقد كان درساً عالياً في مكارم الأخلاق وعاه عمر وغيره من
الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

(١) دلائل النبوة ٥/ ٦٩ .

٨ - فتح أصبهان -

جرت بين المسلمين والفرس حروب بعد معركة نهاوند وذلك فيما جرى في فتح أصبهان ، وقد كان ذلك بقيادة عبد الله بن عبد الله بن عتبان ، وقد التقى المسلمون بأعدائهم وكانوا تحت قيادة « الأستندار » فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم خرج قائد مقدمة الفرس للبراز وهو شهربراز جاذويه فبرز له عبد الله بن ورقاء الأسدي ، فقتله عبد الله وانهزم أهل أصبهان ، ودعا قائدهم الأستندار إلى الصلح فصالحهم المسلمون .

ثم سار عبد الله بن عتبان بجيشه نحو مدينة « جَيَّ » بأصبهان ومَلِكُ أصبهان يومئذ « الفاذوسفان » فحاصره المسلمون واقتتلوا معهم في عدة لقاءات ، فقال الفاذوسفان لعبد الله : لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ، ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتي سالمك أصحابي ، فبرز له عبد الله وقال : إما أن تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك ، فقال : أحمل عليك ، فوقف له عبد الله ، وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب سرج فرسه ، فوقع عبد الله قائماً ، ثم استوى على الفرس عُرْيَا وقال له : اثبت ، فحاجزه وقال : ما أحب أن أقاتلك فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكري فأصالحك^(١) .

وهكذا رأينا كيف أن براعة المسلمين في مجال المبارزة أكسبتهم هاتين المعركتين وفتحوا بذلك هذا الإقليم المهم ، وفي الخبر الأخير

(١) تاريخ الطبري ١٣٩/٤ - ١٤٠ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه ، بتصرف .

بيان أهمية اختيار القادة حيث إن من الصفات اللازمة لذلك أن يكون القائد شجاعاً ذا مقدرة فائقة في فنون الحرب ، فقد رأينا كيف أن عبد الله بن عتبان وقع من فرسه قائماً ولم يسقط لما سقط سرج الفرس ، وقد أذهلت هذه الحركة الرياضية الممتازة قائد الفرس فاستسلم له واعترف برجوليته الكاملة، وهذا يدل على أن المسلمين آنذاك كانوا يهتمون كثيراً بالتدريبات العسكرية المتوفرة في مجتمعهم ، إلى جانب ماتفوقوا به في مجال الأخلاق والمعاملة ، فكانوا محط إعجاب العالم في ذلك الزمن .

ولقد وفر قادتهم وأبطالهم المقدمون كثيراً من الجهد على جنودهم بما قدموا من توضيحات في مجالات المبارزة واقتحام المناطق الخطرة والتخطيط الحربي المحكم ، بينما كان قادة أعدائهم يزجون بجنودهم في مواقع الخطر بأعدادهم الكثيفة ، وأحياناً يقرنونهم بالسلاسل حتى لا يفروا ، ولا يبذل القادة شيئاً يُذكر في المجال الحربي ، فتكون النتيجة أنهم يُعرضون جندهم لمجازر هائلة يكون بعدها الفشل والهزيمة .



٩ - معركة « واج الروذ » -

ذكر الإمام الطبري من حديث سيف بن عمر عن شيوخه أن الأعداء تكاتبوا من ثلاث جهات : الديلم وأهل الري ، وأهل أذربيجان ، فخرج أهل الديلم بقيادة « موتا » حتى نزل بـ « واج روذ » ، وأقبل الزينبي أبو الفرخان في أهل الري حتى انضم إليه ، وأقبل إسفندياذ أخورستم في أهل أذربيجان حتى انضم إليه ، وتحصن المسلمون في « دَسْتَبِي » وبعثوا إلى نعيم بن مقرن بالخبر ، وكان في همدان في اثني عشر ألفا من الجند .

وكتبوا إلى عمر باجتماعهم ففرع منها عمر واهتم بحربها .

وهكذا اجتمعت هذه الجيوش لحرب المسلمين بعدما رجع منهم من رجع بعد نهاوند ، ولم يبق مع نعيم بن مقرن رضي الله عنه إلا هذا العدد القليل بالنسبة لكثرة أعدائهم .

فهل من الرأي أن يُقدم المسلمون على معركة غير متكافئة ؟ أو ينسحبوا ويطلبوا المدد من أمير المؤمنين ؟

فالإقدام على المعركة مغامرة ، خاصة وأن أحد الجيوش الثلاثة وهم الديلم يقاتلون المسلمين لأول مرة ، ولاشك أن الذين خبروا قوة المسلمين ، وجربوا الهزائم على أيديهم سيكونون أضعف أمامهم من الذين يقاتلونهم لأول مرة .

ولكن نعيمًا البطل المقدام لم يجعل في الأمر خيارًا ، بل أقدم على المسير إليهم ، لا إقدام المتهور ، بل إقدام من حَسُنَ ظنه بالله تعالى ، وعظمت ثقته بنصر أوليائه ، وإقدام من عظمت ثقته بإيمان

جنده واندفاعهم نحو التضحية بكل طاقتهم .

وقد استخلف نعيم بن مقرن يزيد بن قيس على ولايته ، وخرج إلى الأعداء بالجيش ، حتى نزل عليهم بـ « واج الروذ » فاقتتلوا بها قتالا شديداً ، وكانت وقعة عظيمة تعدل « نهاوند » ولم تكن دونها ، وقتل من الأعداء أعداد كبيرة لا يُحصون ، ولاتقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار .

وقد كان أمير المؤمنين عمر مُهْتَمّاً بحربهم ، ويتوقع ما يأتيه منهم ، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة ، فقال : أبشير ؟ فقال : بل عروة ، فلما ثنى عليه ، أبشير ؟ فطن فقال : بشير ، فقال عمر : رسول نعيم ؟ قال : رسول نعيم ، قال : الخبر ؟ قال : البشرى بالفتح والنصر ، وأخبره الخبر ، فحمد الله وأمر بالكتاب فقرأ على الناس ، فحمدوا الله .

ثم قدم سماك بن مخزومة وسماك بن عبيد وسماك بن خرشة في وفود من وفود الكوفة بالأخماس على عمر ، فنسبهم ، فانتسب له سماك ونسماك وسماك ، فقال : بارك الله فيكم ، اللهم اسمك بهم الإسلام ، وأيدهم بالإسلام (١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ١٤٨/٤ ، بتصرف .

١٠ - فتح الري -

أخرج الإمام أبو جعفر الطبري عن شيوخه قالوا : وخرج نعيم ابن مقرن من واج رُوذ في الناس - وقد أخرجها - إلى دَسْتَبِي ، ففصل منها إلى الري ، وقد جمعوا له ، وخرج الزينبي أبو الفَرُخان ، فلقية الزينبي بمكان يقال له قَهَا مسالماً ومخالفاً لملك الري ، وقد رأى من المسلمين ما رأى مع حسد سياوخش وأهل بيته ، فأقبل مع نعيم والملك يومئذ بالريّ سياوخش بن مهران بن بهرام شوبين ، فاستمدّ أهل دُنْباوند وطبرستان وقومس وجرجان . وقال : قد علمتم أن هؤلاء قد حلُّوا بالريّ ، إنه لامقام لكم ، فاحتشدوا له ، فناهذه سياوخش ، فالتقوا في سَفَح جبل الريّ إلى جنب مدينتها ، فاقتتلوا به ، وقد كان الزينبي قال لنعيم : إنّ القوم كثير ، وأنت في قلّة ، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به ، وناهدهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يشبُّوا لك . فبعث معه نعيم خيلاً من الليل ، عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو ، فأدخلهم الزينبي المدينة ، ولايشعر القوم ، وبيّتهم نعيم بيّاتاً فشغلهم عن مدينتهم ، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعوا التكبير من ورائهم . ثمّ إنهم انهزموا فقتلوا مقتلةً عدّوا بالقصب فيها ^(١) ، وأفاء الله على المسلمين بالريّ نحواً من فئ المدائن ، وصالحه الزينبي على أهل الريّ ومرزبه ^(٢) عليهم نعيم ، فلم يزل شرف الريّ في أهل الزينبي الأكبر ، ومنهم شهرام وفرخان ، وسقط آل بهرام ، وأخرب نعيم مدينتهم ،

(١) يعني لكثرة قتلاهم لم يمكن عدّهم إلا بقياس مكانهم بالقصب .

(٢) مرزبه عليهم ، أي ولاء مرزباناً عليهم . والمرزبان : رئيس الفرس .

وهي التي يقال لها العتيقة - يعني مدينة الرّي - وأمر الزينبي فبنى مدينة الرّي الحُدثى . وكتب نُعيم إلى عمر بالذي فتح الله عليه مع المضارب العجليّ ، ووقد بالأخماس مع عُتبية بن النّحاس وأبي مفضّر في وجوه من وجوه أهل الكوفة (١) .

وهذا الذي قرره نعيم بن مقرن من قبول معونة الفرّخان وضمّه وجنوده إلى الجيش الإسلامي رأي سديد ، لأنّه قوة تضاف إلى قوة المسلمين ، إضافة إلى كونه من أهل البلاد ، فهو بهذا ينفع المسلمين برأيه ، كما جرى في هذا الخبر .

ولكن هذا الأمر ليس مشروعاً على إطلاقه ، بل لابد أن تكون القيادة للمسلمين ، وأن تكون قوتهم أعظم من قوة حلفائهم ، وأن يتأكد لهم صدق مُحالفهم . . إلى غير ذلك من الضمانات التي تضمن خضوع هؤلاء الأعداء للمسلمين سواء في حال انتصارهم أو هزيمتهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٥٠ .

١١ - فتح الباب -

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري عن شيوخه قالوا : ردّ عمرُ أبا موسى إلى البصرة ، وردّ سُرّاقة بن عمرو - وكان يُدعى ذا النور - إلى الباب ، وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة - وكان أيضاً يُدعى ذا النور - وجعل على إحدى المجنبتين حُذيفة بن أسيد الغفاريّ، وسَمّى للأخرى بكير بن عبد الله الليثيّ - وكان بإزاء الباب قبل قدوم سُرّاقة بن عمرو عليه ، وكتب إليه أن يلحق به - وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة .

فقدّم سُرّاقة عبد الرحمن بن ربيعة ، وخرج في الأثر ، ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب - والملك بها يومئذ شهربراز ، رجل من أهل فارس ، - كاتبه شهربراز ، واستأمنه على أن يأتيه ، ففعل فاتاه ، فقال إنّي بإزاء عدوّ كلّ وأمم مختلفة ، لا يُنسَبون إلى أحساب ، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يُعين أمثال هؤلاء ، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول ، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ، ولست من القبح في شيء ، ولا من الأرمن ، وإنكم قد غلبتم على بلادِي وأمتي ، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم ، صَغُوي (١) معكم ، وبارك الله لنا ولكم ، وجزيتنا إليكم النصر لكم ، والقيام بما تحبّون ، فلا تدلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم .

فقال عبد الرحمن : فَوُقي رجلٌ قد أظلك فسرّ إليه ، فجوّزه ، فسار إلى سُرّاقة فلقِيَه بمثل ذلك ، فقال سُرّاقة : قد قبلت ذلك فيمن

(١) يعني ميلي .

كان معك على هذا ما دام عليه ، ولا بدّ من الجزاء ممّن يقيم ولا ينهض . فقبل ذلك ، وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين ، وفيمن لم يكن عنده الجزاء ، إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة . وكتب سُرّاقة إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فأجازه وحسنه .

وقد وجه سُرّاقة بن عمرو عددا من السرايا لفتح تلك البلاد ، ثم مات رحمه الله تعالى واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة .

هذا وقد ذكر الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن عبد الرحمن بن ربيعة أقره أمير المؤمنين على قيادة الجيش الذي وجهه لفتح الباب بعد موت سُرّاقة بن عمرو فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب - وولاية الباب هي آخر حامية لدولة الفرس من ناحية الشمال - فقال له شهربراز - وهو ملك ولاية الباب الذي صالح المسلمين - قال له : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد « بَلَنْجَر » قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، قال : لكننا لنرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ، وتالله إن معنا لأقواما لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغتُ بهم الرّدْم - يعني سد يأجوج ومأجوج - قال وماهم ؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائما لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يُلَفَّتوا عن حالهم بمن غيّرهم (١) .

(١) تاريخ الطبري ١٥٥/٤ - ١٥٨ ، بتصرف .

وهذا وصف دقيق من عبد الرحمن بن ربيعة لحال الصحابة رضي الله عنهم ، وبيان لبعض عوامل النصر ، فمن ذلك دخول الجهاد بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعزاز دينه ، فإذا تغيرت النية لإرادة الدنيا أو الجاه فإن النصر غير مضمون ، بل ربما أنزل الله عقوبته على هؤلاء الذين بدّلوا نياتهم ، وخادعوا المسلمين .

ومن ذلك صلاح الولاة وعدلهم ، فإذا كانت نية الولاة صادقة في إعزاز الإسلام وتقوية دولته ، وأصبحت سيرتهم عادلة فإن أصحاب العناصر الزكية ممن تحت ولايتهم تكون لهم الكلمة والقيادة ، فبذلك تبرز طاقاتهم الكبيرة ، ويكون التنافس في الأعمال الصالحة ، ويستمر الجهاد قائماً وحيّاً في النفوس .

ومن كانت هذه صفاتهم وصفات ولايتهم فإنهم لا يغلبون بإذن الله تعالى ، ولا يحول دون طموحاتهم حائل حتى تتحقق دولة الإسلام الكبرى ، وتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

قال : فغزا - يعني عبد الرحمن بن ربيعة - بَلَنْجَرَ غزاة في زمن عمر لم تَنَمْ فيها امرأة ، ولم يَنَمْ فيها صبي ، وبلغ خيله في غزاتها «البيضاء» على رأس مائتي فرسخ من بلنجر ، ثم غزا فسلم ، ثم غزا غزوات في زمان عثمان ، وأصيب عبد الرحمن حين تبدّل أهل الكوفة في زمان إمارة عثمان ، لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا ، وعضّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :

وكنّت وعمرًا كالمُسَمَّنِ كَلْبَهُ فخدّشهُ أنيابه وأظافره

وفي رواية أخرى عن سلمان بن ربيعة قال : لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله تعالى بين الترك والخروج عليه ، وقالوا : ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت ، فتحصنوا منه وهربوا فرجع بالغنم والظفر ، وذلك في زمان إمارة عمر ، ثم إنه غزاهم غزوات في زمان عثمان ، ظفر كما كان يظفر ، حتى إذا تبدل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد فغزاهم بعد ذلك ، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم لا يموتون ، قال : انظروا وفعلوا ، فاختموا لهم في الغياض ، فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين غيرة فقتله ، وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك ، فاقتتلوا فاشتد قتالهم ، ونادى مناد من الجو : صبرا آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة ، فقاتل عبد الرحمن حتى قُتل ، وانكشف الناس ، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة ، فقاتل بها ، ونادى المنادي من الجو : صبرا آل سلمان بن ربيعة ، فقال سلمان : أوترى جزعا ! ثم خرج بالناس ، وخرج سلمان وأبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جرجان ، واجترأ الترك بعدها ، ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبد الرحمن ، فهُم يستسقون به حتى الآن (١) .

وهكذا تبين لنا أن فساد الولاية يؤثر على مستوى الجهاد ، فبالرغم من كون عبد الرحمن بن ربيعة ما يزال هو القائد فإن تبدل الأمراء في الأمصار المشرفة على الجهاد ، وتوَلَّى من سبقت منهم ردة ، ثم لم يُعرف منهم بعد الولاية استقامة يُخَذَّل المجاهدين ويهبط من

(١) تاريخ الطبري ١٥٥/٤ - ١٥٩ .

معنوياتهم، ويتيح الفرصة لمن كان منهم له ميل إلى الدنيا إلى استعجال الفرصة، لينال نصيبه من ذلك بالوساطات الهرمية المعروفة عند أهل الدنيا .

وبهذا نعرف شيئاً من الحكمة في السنة التي مضى عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في منع تولية من سبقت ردتهم وإن حسن إسلامهم على أكثر من مائة كما سبق، وهما مجتهدان في ذلك، وعثمان رضي الله عنه مجتهد في محاولة استصلاح هؤلاء، ولكن الحق فيما ذهب إليه أبو بكر وعمر من ذلك، وقد تبين لعثمان الآثار السيئة التي ترتبت على إسناد الأمر لمن سبقت ردتهم، كما هو ظاهر في الرواية .

وفي هذه الرواية بيان لعمق إدراك الرواة آنذاك وقوة توحيدهم، فإن السبب الظاهر في تحليل هذه الوقائع أن الترك قد انخدعوا بالمسلمين حيث ظنوا أنهم لا يموتون ، ثم إنهم قاموا بتجربة تبين لهم منها أنهم يموتون فتجرؤوا على قتالهم ، ولكن السبب الخفي هو معية الله جل وعلا لأوليائه بالنصر والتأييد ، وتسخير قلوب الأعداء لهيبة المسلمين والرعب منهم ، حينما كان ولاتهم من أهل الصلاح والتقوى، فحينما تغير هؤلاء الولاة فأصبحوا من أهل الدنيا ، وتغير بعض الجند بتغيرهم تخلى الله تعالى عن نصرتهم ، فانتزعت الهيبة من قلوب أعدائهم وتجرؤوا عليهم .

أما الدلائل الظاهرة لتغير بعض الجند فمنها كما جاء في هذه الرواية هربهم من العدو حينما قتلوا رجلاً منهم ، وهربهم لما قُتل

قائدهم أثناء المعركة ، والمسلمون في ذلك العهد لم يكونوا يهربون أبداً من عدوهم ، بل كان الواحد منهم يقابل رهطاً من الأعداء ، فيثبت لهم ، فكان الهرب أول علامات الانهزام التي جرأت أعداءهم عليهم .

وقول الترك « ما اجتراً علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت » باعته انتصارات المسلمين المتوالية وقضاؤهم على أعظم امبراطورية في نصف الأرض الشرقي ، واقتطاعهم أهم ممالك الامبراطورية الأخرى في الغرب ، ثم أهم من ذلك انتصاراتهم الخارقة للعادة كما في معركة اليرموك ونهاوند ، حيث يغلب على ظن المتأمل فيها أن الملائكة عليهم السلام كانت تقاتل مع المؤمنين .

ولقد كان لهذا الاعتقاد أثر فعال في توهين الأعداء كما هو الحال في هذه الموقعة مع الترك .

ومن هذه المواقف المشيرة في هذا الخبر ما كان من نداء الملائكة عليهم السلام حيث قالوا : « صبراً آل عبد الرحمن فإن موعدكم الجنة » .

وفي هذا دلالة على أن الله تعالى قد كتب لهم الشهادة في تلك المعركة ولم يكتب لهم النصر ، وذلك لتخلّف بعض عوامل النصر المعروفة حيث مال بعض الجند إلى الدنيا ، ولم يتجردوا للآخرة فضعف صبرهم وثباتهم ، وأصبحت رحى الحرب تدور على أهل الثبات والبلاء ، فاستشهد من استشهد في تلك المعركة رضي الله عنهم .

وموقف آخر يدلنا على عظمة المسلمين في قلوب أعدائهم ،
حيث كان أولئك القوم يقدِّسون جسد عبد الرحمن بن ربيعة
فيستمطرون به الغمام ، حيث لم تأكل الأرض جسده ، ولم يتعرض
للتعفن ، وهذا دليل على صدقه وصلاحه رحمه الله ، ولاشك أن
ذلك كان من دوافع إقبالهم على الإسلام بعد ذلك .

* * *

١٢ - شهادتان لصالح المسلمين -

في أثناء هذه الفتوح صدرت شهادتان من الأعداء على عدل المسلمين ووفائهم وبيان سر عظمتهم وقوتهم .

فأولى الشهادتين صدرت من شهربراز ملك ولاية الباب الفارسية ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام الطبري من رواية مطر بن ثلج التميمي ، وذكر قصة حضور الرجل الذي بعثه شهربراز لاستكشاف سد يأجوج ومأجوج وماذكر من صفته وأنه أعطى شهربراز ياقوتة أهداها إليه ملك تلك البلاد وأن شهربراز ناولها عبد الرحمن بن ربيعة قائد المسلمين في تلك الولاية وماحولها ، وأن عبد الرحمن نظر إليها ثم ردها إليه فقال شهربراز : لهذه خير من هذا البلد - يعني الباب - وإيمُ الله لأنتم أحب إليّ ملكةً من آل كسرى ، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني ، وإيمُ الله لايقوم لكم شيء ماوفيتم ووفى ملككم الأكبر (١) .

هذا وإن قول شهربراز هذا شهادة حق للمسلمين من غيرهم ، فالمسلمون قد ملكوا قلوب العالم آنذاك بالعدل والوفاء وسائر مكارم الأخلاق ، بعدما أزالوا أصحاب الطغيان والهوى بالكفاح والجهاد المتواصل ، فاشربأت إليهم أعناق أهل الشهامة والوفاء ممن يقدرّون مكارم الأخلاق ، وينفرون من البغي والعدوان ، فوجدوا في المسلمين ضالّتهم المنشودة ، حيث وجدوا ولّاتهم يُشكّلون هرمًا متناسبًا في تمثيل هذه المكارم ، من إمامهم الأكبر إلى أصغر والٍ فيهم ،

(١) تاريخ الطبري ١٥٩/٤ - ١٦٠ ، بتصرف .

وأصبحت مكارم الأخلاق هي السمة البارزة في أفراد المسلمين في أي بقعة حلُّوها، وتضاءل وجود أصحاب الهوى والبغي، واضطروا إلى الاستخفاء بميولهم المنحرفة حتى لا يُكشَفوا فتقع عليهم العقوبة الرادعة.

فَبَرُّوز أصحاب الشهامة والعدل والوفاء والتواضع، واختفاء أصحاب الأثرة والبغي والكبرياء ظهر المجتمع الإسلامي وكأن كلِّ أفرادِه ممن يمثلون الرقي الأخلاقي في جميع أبعاده .
وهذه ظاهرة خلَّابة بهرت الأمم، فسارع كل من ملَّكَ حرَّيته إلى الدخول في الإسلام، أو على الأقل إلى إبرام الصلح مع المسلمين والرضى بالدخول تحت حمايتهم .

أما الشهادة الثانية فقد صدرت من ملك الصين، وذلك حينما أرسل له كسرى يطلب منه المدد والنصرة ، فجرت بينه وبين رسول كسرى محاورَة جاء فيها قول ملك الصين : قد عرفتُ أن حقًّا على الملوك إجماع الملوك على من غلبهم فَصَفُ لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم ، فإنني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ، ولا يبلُغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشرًّا فيكم ، فقلت : سألني عما أحببت ، فقال : أيوفون بالعهد ؟ قلت : نعم، قال : وما يقولون قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث ، إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة أو المنابذة ، قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟ قلت : أطوع قوم لمرشدتهم ، قال فما يحلُّون وما يحرمون ؟

فأخبرته ، فقال : أيحرمون ما حُلِّل لهم أو يحلُّون ما حُرِّم عليهم ؟ قلت : لا ، قال : فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلُّوا حرامهم ويُحرِّموا حلالهم ، ثم قال : أخبرني عن لباسهم ، فأخبرته ، وعن مطاياهم ، فقلت : الخيل العرب - ووصفتها - فقال : نعمت الحصون هذه ، ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها ، فقال : هذه صفة دوابٍ طوال الأعناق .

وكتب معه كتاباً إلى يزيدجرد : إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمر وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدووها ، ولو خلَّي سربهم أزالوني ماداموا على ما وصف فسالمهم ، وأرض منهم بالساكنة ولا تهجهم مالم يهجوكم . ذكره الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر بإسناده عن الوازع بن زيد بن خليفة (١) .

وهكذا شهد ملك الصين للمسلمين بالقوة والعظمة وامتلاك أسباب التمكين في الأرض ، وما جاء في هذه الاستفسارات والنتائج المرتبة عليها يدل على سعة عقل ملك الصين وخبرته الدقيقة بعوامل انتصار الأمم وعوامل انهزامها .

وقد أشار إلى بعض العوامل التي كانت سببا في انتصار المسلمين وتمكينهم في الأرض ، فمن ذلك :

١ - وفائهم بالعهد ، وذلك أن الوفاء بالعهد دليل على الالتزام بمبدأ قوي مهيم ، لاتتلاعب به الأهواء ، وهذا المبدأ يفرض احترام

(١) تاريخ الطبري ١٧٢/٤ - ١٧٣ .

أصحابه على الناس ، ويبعث على هيبتهم ، فأما لو نقض المسلمون العهود فإنهم يصبحون كغيرهم ممن تُسيرهم أهواؤهم أو أهواء من يعملون لهم ، وبالتالي تزول هيبتهم عند الأمم ويطمعون في الاستيلاء على بلادهم .

٢ - أن أول خصلة يدعو إليها المسلمون هي دخول أعدائهم في الإسلام ، وأنهم إذا دخلوا فيه كانوا كالمسلمين تماماً ، وأصبحت لهم بلادهم وسائر حقوقهم ، بل أصبحوا جديرين بأن يُفرض لهم العطاء كبقية المسلمين ، بدلاً من أن تؤخذ منهم الجزية ، وإن هذا وحده ليدل على أن المسلمين لم يخرجوا من بلادهم لطلب ملك أو للإفساد في الأرض ، وهذا يجعل جنود الأعداء يقاومون المسلمين بضعف لعلمهم بأنهم دعاة إصلاح ، وقد يتأكد لديهم أن إنقاذهم من ظالمهم سيكون على يد هؤلاء الذين وُجِّهوا لقتالهم ، ولهذا العامل وغيره كان الكفار دائماً ضعفاء أمام المسلمين في ذلك الزمن .

ولقد كان أكثر أفراد الأمم سعادة آنذاك هم الذين دخلوا في الإسلام ، ثم يليهم في ذلك الذين دفعوا الجزية ودخلوا في حماية المسلمين ، لأنهم لمسوا عدل المسلمين ورحمتهم بالمقارنة بما كانوا عليه من ظلم ولاتهم السابقين .

٣ - طاعة الجنود لقادتهم ، والمسلمون الأوائل في هذه الخصلة لانظير لهم في الأمم ، ذلك أنهم يعتبرون طاعة القائد من طاعة الله تعالى ما لم يأمر بمعصية ، وهذا لا يوجد في غير الإسلام ، ولذلك قال رسول كسرى في وصفهم « هم أطوع قوم لمرشدهم » .

٤ - الالتزام الكامل بالدين الذي من أجله قاتل المسلمون ، فإن المسلمين إذا التزموا بأوامر الدين فأحلُّوا ما أحل الله وحرَّموا ما حرَّم الله تعالى فإنه جل وعلا يكون معهم ، ومن كان الله معه فإنه لا يُغلب أبداً ، وبعد هذا فإن قوة المسلم في جهاده إنما تنبع من كونه يدافع عن عقيدة صحيحة مهيمنة على مشاعره ، وهولها في غاية الاحترام والتعظيم ، فإذا أُحلَّ بهذه العقيدة فإن قوته تضعف كثيراً لأنه يشبه والحال هذه من يقاتل بلا عقيدة ، وإنما يقاتل من أجل الوطن أو المال وغير ذلك من المنافع الدنيوية .

ولقد أدرك ملك الصين خطر مخالفة الدين الذي من أجله كان القتال والانسحاق في الأرض ، حيث قال : « فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلُّوا حرامهم ويحرِّموا حلالهم » .
ومن الذي يستطيع من الأعداء أن يحمل المسلمين على هذه المخالفة؟

إنه لا يمكن أن يتم شيء من ذلك إلا بإرادة المسلمين أنفسهم ، ولذلك كان مما يشبه المستحيل أن يستطيع الأعداء التغلب على المسلمين ما لم يكونوا هم بأنفسهم عوناً على أعدائهم ، وذلك بالتفريط في أمور دينهم الذي هو مصدر عزهم ومكمن قوتهم .

وبعد هذه المسألة قال ملك الصين في رسالته إلى كسرى : ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوُّها ، ولو خلَّي سربُّهم أزالوني ماداموا على ما وصف - يعني لو خلَّي طريقهم إلى ملك الصين لأزالوه رغم قوته الذي ذكر .

وهذه العوامل التي ذكرها ملك الصين هي بعض عوامل قوة المسلمين ، وقد اكتسب معرفتها بالخبرة بأحوال الأمم .

هذا وإنَّ صدقَ رسول كسرى في خبره عن المسلمين دليل على أن عامة الفرس كانوا معجبين بالمسلمين ، ولذلك سارع كثير منهم إلى الدخول في الإسلام منذ أن زالت دولة الطغاة عنهم وأصبحوا أحراراً في تفكيرهم .

وصية من أمير المؤمنين عمر :

وما ذكره ملك الصين من أن سر انتصار المسلمين المتكرر يكمن في التزامهم بدينهم قد أوصى به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كثيراً ، فمن ذلك قوله - كما جاء في سياق هذه الرواية - في خطبة له بعد ورود خبر انتصار المسلمين على الترك وعلى آخر جمع ليرزجرد ملك الفرس : إن الله تبارك وتعالى ذَكَرَ رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى ، ووعد علي اتباعه مِنْ عَاجِلِ الثَّوَابِ وَأَجَلِهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ لَهُ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) فالحمد لله الذي أنجز وعده ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك مُلْكَ المجوسية وفرَّقَ شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، ألا وإن المصريين - يعني البصرة والكوفة - من مسالحها اليوم كأنتم والمصريين من البعد - يعني أن فتوحات أهل البصرة والكوفة من البعد كَبُعدَ المدينتين عن المدينة المنورة - وقد غلوا في البلاد ، والله بالغ أمره ومنجز وعده

(١) سورة الصف / ٩ .

ومتبع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يُوفٍ لكم بعهده
ويؤتكم وعده ، ولا تبدّلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم فإنني لا
أخاف على هذه الأمة أن تؤتني إلا من قبلكم (١) .

فإن قول عمر رضي الله عنه « لينظر كيف تعملون » يشير إلى أن
مأمّن الله به على الأمة الإسلامية من الفتوح الواسعة ليس من أجل
أن يتمتعوا بفيئها وخيراتها ، وإنما من أجل أن يعمروها بعبادة الله
تعالى ، وفيه إشارة إلى أن بقاء ملك المسلمين وهمنتهم مرهون
بتنفيذهم شريعة الله تعالى ، فإذا فرطوا وتهاونوا في أمر الدين فإن
الله سبحانه قد ينتزعها منهم ولو على يد الكفار عقوبة لهم ، فلا يَغْتَرَّنَ
المسلمون بمملكتهم الواسعة ، فإنها ليست بيدهم وإنما هي بيد الله
تعالى أدالهم فيها على من سبقهم من الأمم ، والمسلمون أحق بها
وأجدر ماداموا على الوفاء بالعهد والالتزام بأمانة الدين ، فإذا خانوا
العهد وضيعوا الأمانة فليسوا أهلا لقيادة الأمم وعمران الأرض .

من أمثلة أمانة جنود الإسلام :

ولقد كان المسلمون آنذاك موضع الأمانة وأكفاء المسئولية ولقد
كانت عفتهم عن الدنيا مع قدرتهم على أخذ المال من غير وجهه
الحلال دليلا على قوة إيمانهم وجدارتهم بما أفاء الله جل وعلا عليهم
من فتوح وانتصارات .

وإن من أمثلة أمانتهم ما ذكره الإمام الطبري من طريق سيف بن
عمر عن عاصم بن كُلَيْب عن أبيه قال : خرجنا مع مجاشع بن مسعود

(١) تاريخ الطبري ١٧٣/٤ .

غازين «تَوَجَّ» فحاصرناها وقتلناهم ما شاء الله فلما افتتحناها وحوينا نَهَبَهَا نَهَبًا كَثِيرًا - يعني غنائمها - وقتلنا قتلى عظيمة، وكان عليّ قميص قد تخرق فأخذت إبرة وسلكا وجعلت أخيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل في القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب مافيه، فلبسته، فلما جمعت الرثّة - يعني الغنائم - قام مجاشع خطيبا فحمد الله وأثنى عليه، فقال: يا أيها الناس لاتغلّوا فإن من غل جاء بما غل يوم القيامة، ردّوا ولّو المخطط، فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس (١).

وهذا مثل شاهد على أمانة جنود الفتح الأوائل، فبالرغم من حقارة ذلك الثوب الذي أخذه وحاجته إليه وما قام به من تنظيفه فإنه قد رده إلى الغنائم، وبهذه الأمانة بلغوا ذلك المستوى الرفيع الذي أهلّهم للنصر على الأعداء والسيادة على العالم.

ولقد كانت توصيات قادتهم تدور حول هذا المعنى، فمن ذلك قول عثمان بن أبي العاص بمناسبة فتح «إصطخر» إن هذا الأمر لايزال مقبلا ولايزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يغلّوا فإذا غلّوا رأوا ما يكرهون، ولم يسدّ الكثير مسدّ القليل اليوم.

وقال أيضًا: إن الله إذا أراد بقوم خيرا كفّهم ووفّر أمانتهم، فاحفظوها فإن أول ماتفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدّد لكم في كل يوم فقْدان شيء من أموركم (٢).

(١) تاريخ الطبري ١٧٥/٤.

(٢) تاريخ الطبري ١٧٥/٤ - ١٧٦ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه.

وإذا كان قادة المسلمين على هذا النهج السديد فليس غريبا أن
يستقيم جندهم وأن يعلو أمرهم .

* * *

١٣ - مواقف لبعض قادة المسلمين -

تبين لنا من الأخبار الماضية أمثلة عالية تظهر تفوق قادة المسلمين الأوائل وذلك فيما يتعلق بالرأي السديد والقوة والشجاعة ، مما يدل على أن الولاة كانوا يبذلون جهداً في اختيارهم للمهام الحربية .

ونجد من أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن الحكم ابن أبي العاص وكان قائداً في إحدى معارك فارس قال : قصد إلي «شهرک» - يعني قائد الفرس - قال : فصعد إلي في الجنود فهبطوا من عقبة عليهم الحديد ، فخشيت أن تَعْشُوَ أبصار الناس فأمرت منادياً فنادى : أن من كان عليه عمامة فليلفها على عينيه ، ومن لم يكن عليه عمامة فليغمض بصره (١) .

وهذا نوع من السداد في الرأي والحزم في العمل ، فإن انبهار الجنود بمنظر عدوهم المروع قد يكسر بعض ما في نفوسهم من الإقدام ، وقد لفت انتباه القائد لمنظرهم وهم في دروع الحديد والسلاح كونهم نازلين من منحدر فهم مكشوفون بأجمعهم لجيش المسلمين بخلاف ما إذا كانوا وإياهم في أرض مستوية فلأنما يرون مقدميهم فقط .

وقد يقول قائل : وهل يضمن القائد من جيشه أن يلتزموا بهذا الأمر فيغطوا أعينهم ؟

والجواب على ذلك أن طاعة أوامر القائد واجبة شرعاً عند المسلمين مادامت في حدود طاعة الله تعالى ، ولذلك فإن القائد يضمن تنفيذ أوامره بدون تكليف رقباء من الجنود يحافظون على

(١) تاريخ الطبري ١٧٧/٤ .

الالتزام ، وهذه ميزة كبرى يختص بها المسلمون الملتزمون بأوامر دينهم .

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري أيضاً بإسناده أن عبيدالله ابن معمر وكان قائداً في فتوح فارس خشي من أحد قادة الفرس الذين صالحوهم وهو « آذريان » أن يغدر بالمسلمين فقال له : إني أحب أن تتخذ لأصحابي طعاماً ، وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فإنني أحب أن أتمشش العظام ، ففعل ، فجعل يأخذ العظم الذي لا يكسر إلا بالفئوس فيكسره بيده فيتمخّحه (١) - وكان من أشد الناس - فقام الملك فأخذ برجله ، وقال : هذا مقام العائد فأعطاه عهداً (٢) .

وهكذا كفى عبيد الله بن معمر جيشه حرباً قد تضر بالمسلمين ، باستخدامه ما وهب الله تعالى من قوة بدنية ، فقد أرعب ذلك الأمير الفارسي بما رآه من قوته ، وتصور أن الذي كسر العظام الصلبة بيده قادر على تحطيم جماجمهم بسلاحه ، كما أن في هذا التصرف الذي قام به عبيد الله إشعاراً لهم بأنه مصمم على تحطيمهم لو نقضوا العهد كما حطم تلك العظام .

ومن الأمثلة الرائعة في الجمع بين سداد الرأي والشجاعة ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الوازع بن خُلَيْدَة قال : لما بلغ عمر غلبة الأحنف على المرويين وبلغ (٣) قال : وهو

(١) أي يخرج مخه .

(٢) تاريخ الطبري ١٧٧/٤ .

(٣) قوله المرويين يعني مرو الروذ ومرو الشاهجان .

الأحنف وهو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه (١) وكتب عمر إلى الأحنف : أما بعد فلا تجوزنَّ النهر ، واقتصر على مادونه ، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدُم لكم النصر وإياكم أن تغيروا فتُفَضُّوا .

ثم ذكر استنجاد ملك الفرس بملك الترك خاقان وأن ملك الترك أنجده وخرج بجيشه حتى عبر نهر بلخ إلى أن قال : وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصغد نهر بلخ غازيًا له خرج في عسكره ليلا يسمع هل يسمع برأي ينتفع به ، فمر برجلين يُنْقِيَانُ علفًا ، إما تبنا وإما شعيرا ، وأحدهما يقول لصاحبه : لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا ، وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله ، فرجع واجتزأ بها ، وكان في ليلة مظلمة فلما أصبح جمع الناس ثم قال : إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يَهُولَنَّكُمْ ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى الجبل فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد ، ففعلوا وقد أعدوا ما يصلحهم ، وهو في عشرة آلاف من أهل البصرة ، وأهل الكوفة نحو منهم .

وأقبلت الترك ومن أجلبت حتى نزلوا بهم ، فكانوا يغادونهم

(١) الأحنف هو ابن قيس التميمي وكان من سادة العرب وقد أعجب أمير المؤمنين برأيه ومنطقه ثم أعجب بشجاعته ، وقد سُمِّي الأحنف لحنف في رجله ولذلك قال عنه عمر « المسمى بغير اسمه » لأن الحنف الميل .

ويراوحونهم ، ويتسحَّون عنهم بالليل ما شاء الله ، وطلب الأحنف علمَ مكانهم بالليل ، فخرج ليلةً بعدما علم علمهم طليعةً لأصحابه حتى كان قريباً من عسكر خاقان فوقف ، فلما كان في وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبله ، ثم وقف من العسكر موقفا يقفه مثله ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز ويقول :

إن على كل رئيس حقاً أن يخضب الصَّعدة أو تندقاً
إن لنا شيخاً بها ملقى سيف أبي حفص الذي تبقى

ثم وقف موقف التركي وأخذ طوقه ، وخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه الأول ، ثم وقف دونه وحمل عليه الأحنف ، فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

إن الرئيس يرتبي ويطلعُ ويمنع الخلاء إما أربعوا

ثم وقف موقف التركي الثاني وأخذ طوقه ، ثم خرج ثالث من الترك ففعل فعل الرجلين ووقف دون الثاني منهما ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين ، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

جرى الشَّموس ناجزاً بناجز محتفلاً في جرىه مشارز

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعدَّ ، وكان من شيمة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة ، فخرجت الترك ليلتشد بعد الثالث ، فأتوا على فرسانهم مُقتلين ، فتشأم خاقان وتطير فقال : قد طال مقامنا ، وقد أصيب

هؤلاء القوم بمكان لم يُصَبْ بمثله قط ، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير فانصرفوا بنا ، فكان وجوههم راجعين ^(١) ، وارتفع النهار للمسلمين ولا يرون شيئاً وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلخ ^(٢) .

وهكذا تبين لنا أن من النتائج الطيبة لحسن اختيار القادة أن المسلمين قد تجنبوا كثيراً من المواجهات مع الأعداء ، وكفاهم قادتهم ذلك إما بالرأي السديد في إدارة المعركة أو في اختيار مكانها الملائم وإما بمواقف الشجاعة التي كسروا بها قلوب الأعداء ووفروا طاقة جنود المسلمين للمواجهات التي لا بد منها .

ومن هؤلاء القادة العظماء هذا القائد الفذ الأحنف بن قيس الذي جمع بين سداد الرأي والشجاعة النادرة ، وهو مع ذلك لا يعتد برأيه وإنما يلتمس الآراء حتى من عامة الجند الذين قد لا يوصلون آراءهم لقاداتهم ، فقد نزل هذا القائد إلى ميدانهم فصار يسمع في الليل وهو يدور في مضارب الجيش علّه يسمع رأياً سديداً يصير إليه في قتال الأعداء ، وحصل له ما أراد كما هو واضح في الخبر .

ثم هو بعد ذلك يُعمل فكره ويسهر الليل ليعرف واقع الأعداء وأحوالهم الدقيقة فلعل معرفته بذلك تدلّه على مواطن ضعفهم ، وحيث إنه دقيق التفكير عظيم الهم لأمر جيشه وأمته فقد فضل أن يقوم هو بمهمة استكشاف أمر العدو ليلا ليعرف سر انسحابهم بعيداً عن أرض المعركة .

(١) أي وجهوا وجوههم نحو الخلف راجعين .

(٢) تاريخ الطبري ١٦٨/٤ - ١٧٠ .

وقام بذلك وحده وهي مهمة شاقة خطيرة لا يتصدى لها إلا عظماء الرجال ، واكتشف سر ذلك بخروج طليعتهم من الفرسان الثلاثة وقيامهم بدق الطبول على انفراد وتباعد ، الأمر الذي لا يتم لهم لو بقوا في ميدان المعركة ، وقام بالقضاء عليهم الواحد تلو الآخر بشجاعة نادرة وجسارة عظيمة ، وقد ساعده على القيام بهذه المهمة بُعد هؤلاء الفرسان عن قومهم بحيث لا يرونهم ولا يسمعون صوتهم ، وانفراد كل واحد منهم عن الآخر .

وبهذا نعلم أن قادة المسلمين كانوا أقرب إلى الأهوال والتضحيات من جنودهم ، وقد يكلفون بمثل هذه المهمة واحداً أو أكثر من أصحاب الكفاءات الذين يثقون بإدراكهم وشجاعتهم ، ولكن قد يكون في ذهن القائد تخطيط معين مبني على إدراك أمور العدو ، ويرى أن غيره لا يشفيه في هذه المهمة فيذهب لتحقيقها بنفسه كما هو الحال في هذه الواقعة .

ولاشك أن الإقدام على السير إلى أرض العدو نوع فريد من الشجاعة مبني على قدر عظيم من الإيمان بالله تعالى .

ولقد تحقق لهذا القائد البطل ما أراد من هذه المغامرة الجريئة حيث وُفق إلى قتل الثلاثة الذين خرجوا طليعةً للعدو ثم كان قتلهم سبباً في تشاؤم الأعداء ورحيلهم عن أرض المعركة .

وهكذا جنبَّ الأحنف جيشه معركة شرسة يخوضونها مع عدو يتصف بالغلظة والشجاعة ، وتحقق فيه قول عمر رضي الله عنه الذي تقدم في أول هذا الخبر حيث اعتبره سيد أهل المشرق ، وإن من أبرز

علامات السيادة أن يجعل القائد من نفسه حاميا لجنده يقيهم بنفسه المهالك ويوفر عليهم المتاعب .

ولاننسى أن من أسباب خذلان الكفار ما وقر في قلوبهم من عقيدة التطيُّر ، فقد تشاءموا مما حدث لفرسانهم الثلاثة ، فكان ذلك من أهم العوامل التي هزمتهم وقرروا بها الانسحاب من أرض المعركة ، وقد كانت هذه العقيدة الجاهلية عاملا مُضعفًا للأعداء ومقويًا للمسلمين في كثير من حروبهم كما مر علينا في القادسية .

وإن من مزايا عقيدة الإسلام الناصعة أن الله تعالى طهر قلوب المسلمين من عقيدة التشاؤم فأصبحوا يمشون في جهادهم مُقدمين لايلوون على شيء من الأمور التي تعوق الأعداء وتوهن قوتهم .

خبر سارية بن زئيم وموقف لعمر :

هذا وقد حدث في أحيان نادرة أن فات التوفيق إلى الرأي السديد بعض القادة فيقيض الله تعالى للمسلمين ما يخرجهم من المآزق التي وقعوا فيها .

ومن الأمثلة على ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه قالوا : وقصد سارية بن زئيم « فَسَا » و « وارايجرد » - يعني حينما أمر أمير البصرة قاداته بالتفرق في بلاد الفرس - حتى انتهى إلى عسكرهم ، فنزل عليهم وحاصرهم ماشاء الله ، ثم إنهم استمدوا فتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس ، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير ، فرأى عمر رضي الله عنه في تلك الليلة فيما يرى النائم معركةهم وعددهم في ساعة من النهار ، فنادى

من الغد : الصلاة جامعة ، حتى إذا كانت الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم ، وكان أُرِيَهُم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم ، وإن أرزوا إلى جبل من خلفهم لم يُؤْتُوا إلا من وجه واحد ، ثم قام فقال : يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين - وأخبر بحالهما - ثم قال : ياسارية الجبل ، الجبل ، ثم أقبل عليهم ، وقال : إن لله جنودًا ولعل بعضها أن يبلغهم ، ولما كان تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل ففعلوا وقتلوا القوم من وجه واحد فهزمهم الله لهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر واستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم (١) .

وجاء في رواية أخرى ذكرها الإمام الطبري أن المسلمين في المدينة سألوا رسول ذلك الجيش عن الفتح وهل سمعوا شيئًا يوم الواقعة ؟ فقال : نعم سمعنا : ياسارية الجبل ، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا (٢) .

وذكر الحافظ ابن كثير رواية مختصرة لهذه الواقعة وقال : هذا إسناد جيد حسن (٣) ، وذكرها العلامة على المتقي الهندي من رواية ابن الأعرابي والديرعاقولي وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي نعيم والبيهقي واللالكائي وابن عساكر ، ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر حسن إسنادها (٤) .

(١) تاريخ الطبري ١٧٨/٤ .

(٢) تاريخ الطبري ١٧٩/٤ .

(٣) البداية والنهاية ١٣١/٧ .

(٤) منتخب كنز العمال ٣٨٦/٤ .

هذا وقد تبين لنا من هذه الروايات أن سارية بن زنيم لم يوفق في اختيار المكان المناسب لتلك المعركة فكشفهم الله تعالى لأmir المؤمنين عمر رضي الله عنه في المنام وأدرك خطورة مكانهم والمكان المناسب لحمايتهم ، فجمع المسلمين من الغد وذكر لهم ما رأى ، ثم نادى سارية أمامهم وأمره بلزوم الجبل ، وإنما جمع الناس وأعلن اجتماعهم ليحضره من يحضر مجالس الذكر من الملائكة عليهم السلام ومسلمي الجن ، فأراد بذلك الخطاب أن يسمعه جنود الله تعالى فلعل بعضهم يبلغ رسالته كما صرح بذلك .

ونخلص من هذا إلى أن لله تعالى جنوداً لانراهم ينصر بهم المسلمين ويبلغون رسائلهم ، فقد نصر الله تعالى المؤمنين بالملائكة ، عليهم السلام في أكثر من موطن ، وبلغ رسائلهم بواسطة إخوانهم مسلمي الجن كما مر علينا ذلك .

ولما كان عهد المسلمين الأوائل ليس عهد الاتصالات السريعة سخر الله تعالى من عباده من نقل رسالة عمر إلى سارية فنفعه الله بها ، وسمعوا يوم المعركة صوتاً ينادي : ياسارية الجبل فلجئوا إليه ونصرهم الله تعالى .

وإذا كان ذلك من امتنان الله تعالى على المسلمين عامة فهو كرامة منه جل وعلا لأmir المؤمنين عمر الذي وهب نفسه لله سبحانه ولعباده المؤمنين .

* * *

١٤ - فتح سجستان -

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنه قالوا : وقصد عاصم بن عمرو لسجستان ولحقه عبد الله ابن عمير فاستقبلوهم فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم ، فهزموهم ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ، ومخروا أرض سجستان ماشاؤوا ، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين ، فأعطوه ، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن فدأفدأ حمى ، فكان المسلمون إذا خرجوا تناذروا خشية أن يصيبوا منها شيئا (١) .

فهذا مثل من أمثلة حفظ المسلمين للعهود ، حيث يُنذر بعضهم بعضا إذا خرجوا حتى لا ترعى دوابهم من ذلك الحمى فيُخلُّوا بالعهد ، ولقد كانت لهم الهيمنة وبيدهم القوة لو أرادوا أن يُخفروا ، ولكنهم يخشون الله تعالى حيث يعلمون أن نقض العهد أو الإخلال بشروطه أمر محرم .

وهكذا حمى المسلمين دينهم من المخالفات التي يترتب عليها سوء المصير في الآخرة ، والعاقبة السيئة في الدنيا ، حيث قد يسلط أعداؤهم عليهم فتكون الدولة لهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٨٠ .

١٥ - معركة بيروز من الأهواز -

كان أمير المؤمنين عمر قد عهد إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما حينما فرّق الجند على الأمصار البعيدة أن يسير إلى نهاية حدود قطاع البصرة كي لا يؤتى المسلمون من خلفهم ، ولإنقاذ من يحاط به من الجيوش أو من ينقطع عن جيشه .

ولقد وقع ماحذر منه عمر حيث اجتمع في « بيروز » جمع عظيم من الأكراد وغيرهم ليكيدوا المسلمين ويصيبوا منهم عورة ، وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ، فخرج إليهم حتى نزل عليهم في رمضان ، فالتقوا بين نهر تيري ومناذر .

وهذا الحذر من عمر إلهام من الله تعالى له ، وهو مع أمثلة سبق بعضها مصداق قول النبي ﷺ « لقد كان فيمن قبلكم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » أخرجه الشيخان^(١) .

فقد أدرك عمر مما يتوقع من الفرس وهو بعيد عنهم مالم يدركه القريبون من قادة العراق ، وكم لهذا الإمام الملهم من مواقف عظيمة كانت إنقاذاً من الله تعالى للمؤمنين آنذاك من مهالك ، ومآزق خطيرة .

ولما التقى الصفان قام المهاجر بن زياد وقد تحنّط واستقتل فقال لأبي موسى : أقسم على كل صائم لما رجع وأفطر ، فرجع أخوه

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، باب ٦ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة / ٢٣ .

لإبرار القسم ، وإنما أراد بذلك توجيه أخيه عنه لئلا يمنعه من الاستقتال ، وتقدم فقاتل حتى قُتل ، ووهن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة (١) .

هذا وإن ما قام بهه المهاجر بن زياد من الاستعداد للشهادة مثل من أمثلة رائعة لجماعة من أقوىاء الإيمان جعلوا من أنفسهم مشعلًا لحماس المسلمين ودفعهم لبذل طاقتهم الكاملة في المعارك ، ولقد كانوا مقدمة للنصر الذي أحرزه المسلمون آنذاك .

وهو مثل يدلنا على ما يفعله القلب المشحون بالإيمان من دفع النفس إلى ركوب المخاطر وخوض الأهوال من أجل تحقيق العلو والسيادة لكلمة الله تعالى في الأرض . . هذا المبدأ السامي الذي كان ماثلاً على الدوام في أعين أولئك المجاهدين ، والذي استهانوا من أجله بالدنيا وما فيها من متاع زائل .



(١) تاريخ الطبري ١٨٣/٤ من طريق سيف بن عمر عن شيوخه .

١٦ - شكوى ضد أبي موسى الأشعري -

وهي الشكوى التي تقدم بها ضبة بن محصن العنزي ضد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين كان والياً على البصرة ، وقد ذكرها الإمام الطبري مطولة وخلاصتها أن هذا العنزي طلب من أبي موسى أن يرسله في الوفد إلى أمير المؤمنين فأبى وقال : قد كتبنا من هو أحق منك ، وكتب أبو موسى بخبره إلى عمر ، فقدم على أمير المؤمنين عمر فاشتكى أبا موسى الأشعري في أنه أخذ ستين من أبناء أمراء فارس الذين تم سبيهم ، وأن له جارية تدعى عقيلة تُغدّي جفنة وتُعشّي جفنة ، وأن له قفيزين ، وأنه فوّض أمر الإمارة إلى زياد بن أبيه ، وأنه أجاز الخطيئة بألف .

وجاء في الرواية أن عمر بعث إلى أبي موسى فقدم عليه وجمع بينه وبين ضبة العنزي ، وسأل أبا موسى عن تلك الموضوعات فقال أبو موسى عن أبناء أمراء فارس : دُلّلت عليهم ، وكان لهم فداء ففديتهم وأخذته فقسمته بين المسلمين ، فقال ضبة : والله ما كذب ولا كذبت ، وقال عن القفيزين : قفيز لأهلي أقوتهم وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم ، فقال ضبة : والله ما كذب ولا كذبت ، فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى فلم يعتذر ، وعلم أن ضبة قد صدقه .

وقال عن زياد : وجدت له نبلاً ورأيا فأسندت إليه عملي ، وقال عن الخطيئة : سددت فمه بمالي أن يشتمني .

فقال عمر : قد فعلت ما فعلت فارجع إلى عملك ، وقال له : إذا قدمت فأرسل إليّ زياداً وعقيلة .

وجاء في الرواية أنه اختبر زياداً فوجده فقيهاً فردّه وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه ، وحبس عقيلة بالمدينة ، وقال : ألا إن ضبّة العنزي غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه ، وفارقه مراغماً أن فاته أمر من أمور الدنيا ، فصدق عليه وكذب فأفسد كذبه صدقه فإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى النار^(١) .

هذا وإن ما قام به هذا الرجل يعتبر مثلاً للتعجل والتهور في شكوى المسئولين في أمور عرف المدّعون ظاهرها وخفي عليهم باطنها ، فأولّوها على حسب أهوائهم ، وقد كان الطريق القويم أن يبدي هذا الرجل اعتراضه على أميره ليعرف منه جليّة الأمر ، ولكن الهوى أحياناً يقود صاحبه إلى سوء التفكير ، والخطأ في التدبير .

وقد استمع أمير المؤمنين لشكواه مع علمه بخبره ، وهو تجاوب من عمر رضي الله عنه حملة على استقدام الوالي واستجوابه في المسائل التي رفعت ضده ، وهذا هو المنهج السليم في الحفاظ على حقوق الرعية ، وإخماد الفتن في المراحل الأولى من اشتعالها .

هذا وإن في سكوت أبي موسى رضي الله عنه في موضوع الجارية مثلاً من التزام المؤمنين الصادقين بالصدق ، وعدم تزوير الحقائق ، بينما نجد من هم أقل درجة في الإيمان يلتمسون لأنفسهم المعاذير للخروج من الموقف ولو بتغيير الحقائق .

والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن المؤمنين الصادقين يراقبون الله عز وجل في سلوكهم ، بينما أولئك يراقبون من يخاطبهم من المسئولين ،

(١) تاريخ الطبري ١٨٤/٤ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه .

والله تعالى لاتخفى عليه مكنونات الضمائر، بينما يستطيع الذكي اللبّ أن يزور الحقائق ، ويتكلم بلسانه عن غير ما يعتقد بقلبه ، وأقوياء الإيمان يلاحظون التخلص من وقوفهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ، والذين هم دون ذلك يراقبون التخلص من المآزق التي وقعوا فيها في الدنيا .

فالمسؤولون دائماً في راحة من أقوياء الإيمان لأن صفحتهم بيضاء، وألستهم مرآة لقلوبهم ، بينما هم في عنت وهم من ضعفاء الإيمان حيث لا يثقون بالمعلومات التي يحصلون عليها منهم ، ويضطرون لبذل جهد كبير في التحري عن قضيتهم .

وأخيراً يُوجّه عمر رضي الله عنه المسلمين إلى المسلك الأمثل في انتقاد الناس ورفع القضايا ضد المسؤولين ، وذلك بالتجرد من الهوى الذي يحمل صاحبه على الكذب، إما باختلاق قضايا لا أصل لها، أو بتضخيم القضايا ، أو بتفسير الأحداث على غير وجهها ، فإذا حدث هذا فإن صاحب القضية لا يُسمع له وإن صدق في بعض أقواله لأن كذبه يفسد عليه صدقه .

* * *

مواقف وعبد
فی
فتوح مصر

لما تَمَّ فتح الشام أشار عمرو بن العاص على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما بفتح مصر ، وذلك حينما قدم عمر إلى الشام كما ذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم قال : لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية قام إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه فخلا به وقال : يا أمير المؤمنين ائذن لي أن أسير إلى مصر ، وحرَّضَه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزها عن القتال والحرب ، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويخبره بحالها ويهوِّن عليه فتحها حتى ركن إليه عمر وعقد له على أربعة آلاف رجل (١) .

وإنما لم يقبل عمر في أول الأمر إشفاقاً منه على المسلمين ، وكان دائماً حريصاً على أن لا تُسفك دماء المسلمين إلا في سبيل إعزاز الإسلام ، وبناءً على خطط مدروسة محكمة تكون نتائجها التقدم بدولة الإسلام خطوات بعيدة مع بذل أقل التضحيات فكان لذلك يختار القادة الحكماء وينهى قاداته عن أن يقدِّموا على جيوشهم الشجعان المستميتين الذين يندفعون بدافع الفداء والشجاعة المطلقة التي لا تتقيد بالرأي السديد والتفكير المحكم حتى لا يورطوا المسلمين في هلكة ، وذلك أن الشجاع الفدائي قد ينجو من المغامرة لأن الناس

(١) النجوم الزاهرة ٥/١ ، فتوح مصر ٤٧ .

لا يقفون أمام المستميت ولكن قد لا يكون مَنْ وراءه بمثل مستواه من الاندفاع والقوة فيأكلهم الأعداء بسبب تهور من تقدمهم .

وإن المحافظة على سلامة الجنود مع الحصول على أكبر المكاسب الحربية هو الهدف الذي يسعى له القادة المسلمون ، بدافع من خوفهم من الله عز وجل ورجائه قبل كل شيء ، ولأنهم مسئولون ثانياً أمام أمتهم التي ترقب هذه النتائج وتعيش على الأمل السعيد في حصول الانتصارات الكبيرة مع بذل أقل التضحيات ، وإذا كان الدافع الأخير يشترك فيه مع المسلمين بعض الأمم التي يترتب بقاء القادة فيها على السمعة الحسنة لدى أفرادها ، فإن الدافع الأول وهو الخوف من الله عز وجل ورجاؤه ينفرد فيه المسلمون ، وهو الدافع الأهم الذي ظل ملازماً للمسلمين في فتوحهم الأولى .

وإذا كان الكفار يدفعون بجنودهم للتوسع في الأرض رغبة في تأمين الضروريات للمعيشة والكماليات للرفاهية وإشباعاً لحب السيطرة والعلو ، فإن المسلمين يدفعون بجنودهم رغبة في إنقاذ الشعوب المغلوبة على أمرها كي تصل إليها دعوة الإسلام ، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

وإذا كان جنود الكفار يندفعون للقتال رغبة في تأمين الحياة الدنيوية لهم على الوضع الذي يحبونه فإن جنود الإسلام يندفعون إلى الجهاد رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر الأخروي .

ولذلك فإن ولاية المسلمين إذا بذلوا جهدهم في وضع الخطط المحكمة وتأمين ما يستطيعون من سبل السلامة فإنهم لا يكونون ملومين من الجنود وغيرهم في حصول ما يكره من المصائب لأن الجنود إنما

انذفعوا رغبة فيما عند الله تعالى ، وهم يعلمون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يموتوا شهداء .

وبهذا التفكير من الموازنة بين حب الجهاد في سبيل الله تعالى والحفاظ على أرواح المسلمين كان أمير المؤمنين عمر يفكر حينما عرض عليه عمرو بن العاص السير لفتح مصر .

* * *

١ - مسير عمرو إلى مصر -

جاء في رواية ابن عبد الحكم السابقة : وقال له عمر : سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله ، فإن أدركك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس ، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك ، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين ، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح ، فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتح أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل : إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : أستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله تعالى^(١) .

هذا وقد ذكر ابن تغري بردي تفاصيل سير عمرو بن العاص بجيشه ، فذكر أنه سار إلى مصر حتى وصل إلى « الفرما » وهي قرية قديمة بين العريش والفسطاط ، فلقى بها جموعاً من الروم وقتلهم

(١) فتوح مصر / ٤٧ .

قتالاً شديداً نحواً من شهر حتى فتح الله عليه ، وقد جاء في رواية ابن عبد الحكم هذه أن القبط قال بعضهم لبعض : ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وإنما هم في قلة من الناس ! فأجابه رجل منهم فقال : إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يَقْتُلُوا خَيْرَهُمْ .

يعني أنهم يكونون سبباً في قتل خيرهم وهو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كما جاء في رواية أخرى عند ابن عبد الحكم أن عَمراً طلب ذلك الرجل ، فأخبره أصحابه أنه لا يدري ما يقول ، حتى خلَّصوه ، قال : فلما بلغ عمراً قتل عمر بن الخطاب أرسل في طلب ذلك القبطي فوجده قد هلك فعجب عمرو من قوله (١) .

وهذه شهادة للمسلمين من أحد أعدائهم بالشجاعة والإرادة الصارمة ، والتوفيق إلى النتائج الحاسمة ، والحق ما شهدت به الأعداء ، وإنما بلغ المسلمون ما بلغوا من ذلك لصلتهم القوية الدائمة بالله عز وجل ، فهم يشعرون دائماً بأنهم موصولون بالسماء وأن جنود الله تعالى من الملائكة وغيرهم تشاركونهم وتؤيدهم ، وإن شعور أيّ إنسان يقع هو وقومه في محنة بأن دولة قوية تقف معهم يعطيهم قدراً كبيراً من الثقة والأمان والأحلام المستقبلية فكيف إذا كان الإنسان يشعر بأن الله جل وعلا معه بنصره وتأييده ؟ !

وأخرج ابن عبد الحكم من رواية أبي حبيب قال : وكان رجل ممن كان خرج مع عمرو بن العاص حين خرج من الشام إلى مصر

(١) فتوح مصر / ٥٠ ، النجوم الزاهرة ٧/١ .

أُصِيبَ جملهُ ، فأتى عمروً يَسْتَحْمِلُهُ فقال عمرو : تَحْمِلُ مع أصحابك حتى نبلغ العامر ، فلما بلغوا العريش جاء فأمر له بجملين ثم قال له : لن تزالوا بخير ما رَحِمْتُكم أئمتكم ، فإذا لم يرحموكم هلكوا وهلكتم^(١).

وهكذا كان عمرو بن العاص رحيماً بالمسلمين محافظاً عليهم كما أراد أمير المؤمنين عمر ، وإن هذه المعاملة الكريمة لتحجب قلوب الجنود إلى قائدهم ، وترفع مع معنويتهم ، فلا يكون هناك لديهم عوائق دون بذل كل ما يستطيعون من طاقة في الجهاد .

* * *

(١) فتوح مصر / ٤٨ .

٢ - معركة أمّ دنين -

ذكر ابن عبد الحكم في روايته أن عمرًا مضى بجيشه حتى فتح «بلبيس» بعد قتال دام نحوًا من شهر ، ثم مضى حتى أتى «أم دنين» وتسمى المقس وهي واقعة على النيل فقاتل المسلمون حولها قتالاً شديداً وأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يستمده فأمدّه أمير المؤمنين بأربعة آلاف فلما طال الحصار طلب عمرو المدد مرة أخرى فأمدّه أمير المؤمنين بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف ، وهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلّد ، وقيل الرابع خارجة بن حذافة ، وقال عمر في كتابه له : اعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلة .

وقد خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين ، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهاءه الحربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق ، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام ، حيث أقام كميناً للأعداء في الجبل الأحمر ، وأقام كميناً آخر على النيل قريباً من أم دنين ، وقابل أعداءه ببقية الجيش ، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقض على الروم فاختل نظامهم وانهزموا إلى أم دنين فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن باب اليون الحصين (١) .

(١) النجوم الزاهرة ٨/١ ، فتوح مصر ٤٩ .

وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم
بفضله تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنَّك إلى هذه الخطة المحكمة التي
بددَ بها طاقة الأعداء وألجأهم إلى الهزيمة والفرار .

* * *

٣ - معركة باب اليُون وحصار حصنها -

سار عمرو بجيشه حتى وصل حصن باب اليُون ، وقد أخرج الإمام الطبري خبر ذلك من طريق سيف بن عمر عن شيوخه : أن عمرو بن العاص خرج إلى مصر بعدما رجع عمر [يعني من الشام] إلى المدينة حتى انتهى إلى باب اليُون ، واتبعه الزبير فاجتمعا ، فلقياهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ^(١) ومعه الأسقف في أهل النيات ، بعثه المقوقس لمنع بلادهم ، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه ، فأرسل إليهم يقول : لا تُعجلونا لنعذر إلَكم وترون رأيكم بعد ، فكفُّوا أصحابهم ، وأرسل إليهم عمرو : إني بارز فليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام - وهما زعيما الأقباط - فأجابوه إلى ذلك ، وآمن بعضهم بعضا ، فقال لهما عمرو : أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا ، إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به ، وأمرنا به محمد ﷺ ، وأدَّى إلينا كل الذي أمر به ، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته ، وقد قضى الذي عليه وتركنا على الواضحة ، وكان مما أمرنا به الإِعذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فَمَثَلْنَا ، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة ، وقد أعلَمْنَا أننا مفتحوكم ، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم ، وإن لكم إن اجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ، ومما عهد إلينا أميرنا : استوصوا بالقبطيين خيراً ، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيراً ، لأنهم لهم رحماً وذمة ، فقالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء - يعني لا يعلم خبرها إلا الأنبياء - معروفة شريفة كانت ابنة ملكنا ، وكانت من أهل «مَنَف»

(١) يعني رئيس النصارى .

والمُلكَ فيهم ، فأُذيلَ عليهم أهلُ عينِ شمس ، فقتلَهم ، وسُلبوا ملكَهم واغترَبوا ، فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام ، مرحباً به وأهلاً (١) .

يقصدون بذلك هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، فيما أنَّ عمراً ذكرها لهم ولم تُذكر في الرواية ، وإما أن خبرها كان معلوماً لديهم جميعاً فلم يكن هناك حاجة لذكرها .

وهكذا رأينا في هذا الخبر كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يهتمون نقاط اللقاء مع الأعداء ، محاولةً منهم في اجتذابهم إلى الإسلام ، أو على الأقل ليخففوا من اندفاعهم نحو مواجهتهم بالحرب ، فالروم في مصر كانوا متصلبين في عداة المسلمين وهم أصحاب السلطة العليا في مصر ، أما الأقباط الذين هم أهل مصر فقد كانوا يشعرون بظلم الروم ولم يكونوا قادرين على التحرر منهم فإذا انتقلوا من سيطرتهم إلى سيطرة المسلمين ، فإن ذلك من صالحهم وقد شاهدوا عدل المسلمين في البلاد التي فتحوها قبل ذلك ، فظهر منهم الميل إليهم وتفضيلهم على الروم ، فكانت هذه المبادرة من عمرو بن العاص لاستمالة الأقباط ، حيث ذكر لهم أولاً أن الرسول ﷺ قد أخبرهم بفتح مصر للمسلمين ، وهم أهل كتاب ، وقد عرفوا قبل ذلك نبوة رسول الله ﷺ ، وهذا الخبر يرسخ في نفوسهم أن المعركة لصالح المسلمين قبل أن يخوضوها ، ولاشك أن ذلك يوهن في عزائمهم .

(١) تاريخ الطبري ١٠٧/٤ .

كما ذكر لهم وصية رسول الله ﷺ بهم ، وذكرهم بوشائج القربى القديمة التي تربطهم بهم ، وذلك يبعث على التفاهم بينهم .

وهكذا يسلك القادة العظماء حيث لا يخذعون بقوتهم ونجاحهم في الحروب ، بل يحاولون النفوذ إلى قلوب أعدائهم للحد من الاندفاع نحو مواجهتهم ، ولدعوتهم إلى مافيه خيرهم وسعادتهم ، فإما دخلوا في الإسلام ، وإما صالحوهم ، وإما واجهوهم بعد ذلك بضعف لتضاؤل دوافع المواجهة في نفوسهم .

ثم جاء في سياق رواية الطبري المذكورة أن زعيمى النصرى أبا مريم وأبا مريام قالا لعمر بن العاص : آمناً حتى نرجع إليك ، فقال عمرو : إن مثلى لا يخذع ، ولكنى أؤجلكما ثلاثاً لتتنظرا وتناظرا قومكما ، وإلا ناجزناكم ، قالا : زدنا ، فزادهم يوماً ، قالا : زدنا فزادهم يوماً ، فرجعا إلى المقوقس فهم - يعنى بالصلح - فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم .

وهكذا أفلح عمرو في إقناع الأقباط بالصلح ، ولكن قائد الروم رفض ذلك ، وأمر بالحرب .

وقد التزم المسلمون بالهدنة في الأيام الخمسة ولكن الروم غدروا فبيتوا المسلمين ليلاً بهجوم مفاجيء ، وكان المسلمون على استعداد لهم ، كما هي حالهم مع أعدائهم في ذلك العهد ، فالتقوا معهم وقتل « فرقب » قائد الأعداء ومن معه وانهزم بقيتهم (١) .

وهكذا أعطى قادة المسلمين في هذه المعركة - كما أعطوا من قبل -

(١) تاريخ الطبري ١٠٧/٤ - ١٠٨ .

أمثلة حية لليقظة والترقب والرصد الحربي ، حيث لم يكونوا يؤخذون على غرّة ، ويعلمون بتحركات أعدائهم بدقة متناهية .

هذا وقد اعتصم الروم والأقباط في حصن باب اليون المنيع ، وجرت مفاوضات أخرى حيث أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم قد ولجتم في بلادنا ، وألحتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصابة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا يتفعلنا الكلام ولانقدر عليه ، ولعلكم أن تدموا إن كان الأمر مخالفاً لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء .

رسل المقوقس يتأثرون بصلاح المسلمين وأخلاقهم :

فلما أتتُ عمراً رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه : أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم ؟!

وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يرون حال المسلمين ، فرد عليهم عمرو مع رسلهم : إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإما أن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدنا بالصبر

والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضعيهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم .

فقال عند ذلك المقوقس : والذي يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحتهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض ، وقوّوا على الخروج من موضعهم ^(١) .

وهكذا انكشف لنا جانب من جوانب عبقرية هذا القائد الملهم عمرو بن العاص ، حيث أبقى أولئك الرسل يومين ليروا عظمة المسلمين فيحملوا هذه الرسالة الوصفية لزعيمهم ، وإنما دفعه لهذا التصرف ما يدركه من ذلك الرصيد الضخم الذي يملكه المسلمون آنذاك من الرقي الأخلاقي الذي أذهل أفراد الأمم وقادتها .

إن واقع المسلمين في ذلك العصر يعتبر دعاية قوية للإسلام وليس في حياتهم ما يُستَحْي منه ويحرص القادة على إخفائه عن أنظار الأعداء ، بل هو صفحة بيضاء من مكارم الأخلاق ، وسجل حافل من مظاهر المروءة .

(١) النجوم الزاهرة ١ / ١٠ .

ولذلك عاد أولئك الرسل وقد ملئوا إعجابًا بجيش المسلمين أفرادًا وقادة ، وسجلوا هذا الإعجاب بما وصفوا به ذلك الجيش من الشجاعة النادرة ، التي أوصلتهم إلى حب الموت أكثر من حب الحياة ، والتواضع الجرم ، والزهد الرفيع في الدنيا والمساواة بينهم ، حيث لم يجدوا في حياتهم فرقا في المظاهر بين أمير ومأمور ، وشريف ووضيع ، وسيد وعبد .

كما أبدوا إعجابهم بانتظام المسلمين جميعًا في الصلاة حيث لا يتخلف منهم أحد، وهو مظهر مهم من مظاهر الانضباط عند المسلمين، كما أبدوا إعجابهم بما يقومون به بين يدي الصلاة من الوضوء، ثم في مظهر السكينة والخشوع الذي يعلو وجوه المؤمنين ويحكم جوارحهم وهم يؤدون الصلاة .

ولاشك أن صورة المؤمنين وهم يستعدون للصلاة بالوضوء الذي هو مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يتفق العقلاء على أهميتها في حياة الإنسان ، ثم انضباطهم جميعًا وراء إمام واحد، وخشوعهم جميعًا بحيث لا يلتفتون ولا يرفعون أبصارهم . . لاشك أن هذه الصورة تأسر أنظار الناس الذين يشاهدونها لأول مرة ، وتخلب ألبابهم، ويدركون من خلال هذه الصورة الأخاذة أن هؤلاء المصلين وهم في هذا السكون الرهيب والخشوع المهيب ، قد خرجوا عن التفكير في هذه الحياة التي يشترك في جواذبها عموم البشر إلى التفكير فيما وراء الحياة ، فيدفع هؤلاء المتأملين ذلك إلى التساؤل عن الأمر المهم الذي شغل هؤلاء العظماء عن التفكير في أمور الدنيا ، وعندها

يدركون أن هذا الأمر المهم هو الخضوع لعظمة الله عز وجل ولذة مناجاته والشوقُ إلى لقائه والظفر بنعيمه في دار الخلود .

ومن هنا نعلم أن هذه الصلاة الجماعية بذلك المظهر الأخاذ من الخشوع والسكينة تعتبر أعلى مظهر من مظاهر الدعوة إلى الإسلام .

ولقد أثرت هذه المظاهر الأخلاقية على المقوقس فقال ما قال من الثناء على المسلمين ، والاعتراف بأنهم لو استقبلوا الجبال لأزالوها ، وإنما قال ذلك بناء على تجاربه الحربية ، وإدراكه بأن التفوق الأخلاقي يترتب عليه التفوق الحربي .

حوار المقوقس مع وفد المسلمين :

هذا وقد جاء في الرواية المذكورة أن المقوقس رد رسله إلى المسلمين يقول لهم : ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ماعساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وأن لا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال قال : فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ في ذلك، وأمرني أن لا أقبل شيئاً إلا خصلة من هذه الثلاث الخصال وقد تقدم أنها الإسلام أو دفع الجزية وإلا فالقتال .

قال : وكان عبادة أسود ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده ، وقال : نحوا عني هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمني ، فقالوا جميعاً : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا ، والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى

قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا أن لانخالف رأيه وقوله .

فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس يُنكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدّم يا أسود وكلمني برفق فإنني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة .

وعند هذا المقطع من الخبر نقف لنطلّ على مشهد مثير يختصم فيه ملاً أهل الحق وملاً أهل الباطل حول تحديد القيم العليا التي يجب أن تسود مفاهيم البشر .

فبينما نجد ملاً أهل الباطل يضعون معايير للقيم مبنية على الأشكال والصور الظاهرة ، دون عمق وتوغل في الباطن ، فينظرون إلى لون البشرة ، ويعلّقون عليه الحب والكره والتفاؤل والتشاؤم ، نجد ملاً أهل الحق يغوصون إلى الحقائق ، ويستخرجون العناصر الزكية من مكانها فيقدّمون أصحاب الكفاءات الذين يملؤون مراكزهم ، ويعبرون عن أمتهم ومبادئهم السامية ، بما يذهل العدو ويعجب الصديق ويشفي صدور المؤمنين ، وإن كان هؤلاء الأكفاء من أصحاب اللون الأسود الذي يزدريه الجاهليون على مختلف طبقاتهم .

وإنه إن صدر هذا الأزدراء من عامة الناس الجاهليين فإنه لمن العجيب أن يصدر من رجل مسئول عن أمة ، بل من رجل قد اشتهر

بالحكمة والتعقل منذ أن أرسل رسول الله ﷺ كُتِبَ إلى زعماء الأمم فكان المقوقس أحسنهم خلقاً وأحكمهم جواباً ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على رسوخ معاني العصبية الجاهلية في النفوس التي لم تشرق عليها شمس الإسلام الساطعة .

ولقد كان جواب هذه الفئة المؤمنة من أصحاب عبادة جواباً حاسماً وراذعاً للقيم الجاهلية التي تَبَجَّحَ بها زعيم أولئك القوم ، حيث أجابوا بهدوء وحكمة وشجاعة ، فأنكروا وزن الناس بمعيار اللون ، وبينوا أن هذا المعيار لا يوجد عند المسلمين ، مع بيان مؤهلات التقدم التي اتصف بها عبادة رضي الله عنهم أجمعين .

وإزاء هذا الرد الحاسم فإن المقوقس قد اضطر إلى قبول التحدث مع عبادة بن الصامت مع طلب الرفق في الكلام حتى لا يجتمع عليه هيبة لونه مع هيبة كلامه .

قال : « فتقدم إليه عبادة فقال : قد سمعت مقاتلك وإن في من خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني وأفظع منظرًا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، وإنني مع ذلك بحمد الله مأهأب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوًا من حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ماغنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهمًا ، لأن غاية أحدنا من

الدنيا أَكَلَةً يأكلها يسد بها جوعته ، ليله ونهاره ، وشملةٌ يلتحفها ، وإن كان أحدا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذي بيده ويبلغه ما كان في الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، بذلك أمرنا الله تعالى وأمرنا به نبينا ﷺ ، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستتر عورته ، وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاد عدوه (١) .

وقبل أن أذكر تأثير المقوقس بهذا الكلام العظيم البليغ أحب أن أعلق قليلاً على هذا المستوى السامي الذي ارتفع إليه هؤلاء العظماء ، فقد بين عبادة رضي الله عنه أنه وأصحابه من الشجاعة والإقدام بحيث لو قابل أحدهم مائة من الأعداء لثبت لهم ، ثم عزا هذه القوة والثبات إلى ما يتصفون به من الزهد في الدنيا والتجرد من حظوظ النفس ، والاقتصار في المعيشة على القليل الكافي لسد الجوع وستر العورة ، وأنه يستوي في ذلك الفقراء الذين لا يملكون إلا هذا والأغنياء الذين يملكون قناطير الذهب ، لأن من يملك ذلك منهم يسخره في طاعة الله تعالى وخدمة الإسلام ، وأن هدفهم السامي هو ابتغاء رضوان الله تعالى ، ومأعده لهم في الجنة من النعيم المقيم ، وأن هذا النعيم الدائم هو الذي يجب أن يسعى إليه العقلاء بكل ما يملكون من طاقة ، بخلاف نعيم الدنيا الزائل الذي يتنافس عليه ضعاف العقول وقصيرو النظر .

(١) النجوم الزاهرة ١٢ / ١ .

وإذا كان الأمر كذلك ، وكان هذا هو هدف المسلمين المتقين ، فما الذي يشدهم إلى الأرض ، ويمنعهم من الإقدام على الجهاد ، والحال أن الجهاد يقربهم من بلوغ هذا الهدف السامي ؟!

هذا وقد جاء في الرواية المذكورة أن المقوقس لما سمع جواب عبادة تأثر بذلك وأكبره وعظمه حيث قال لمن حوله : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبَّتْ منظره ، وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ، وماأظن مُلكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ، ثم أقبل المقوقس على عبادة ابن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وماذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري مابلغتم مابلغتم إلا بماذكرت ، وماظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يُحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ، ممن لا يبالى أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وأنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرقُّ عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة مابأيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم ، على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتك ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به » .

هذا وإن الإنسان المتأمل ليعجب كيف يفكر المقوقس بهذا التفكير ويعرض هذا العرض مع يقينه واعترافه بأن من يخاطبهم ليسوا طلاب

دنيا، وإنما هم أصحاب دين عظيم يتقيدون به ، ويبدلون جهدهم في نشره بين الأمم ، ولكنها محاولة رجل يائس أراد بها أن يصنع شيئاً يُعذر به أمام قومه ، وأمام الروم المهيمنين عليه ، وهو يعلم أنهم كانوا في الشام يحاولون الصلح مع المسلمين تفادياً لمواجهةهم .

وهنا يظهر لنا لون من ألوان المساومات الرخيصة ، حيث يحاول الصغار أن يستنزلوا العظماء من عليائهم ، ليشاركوهم أفكارهم المتدنية ، وسلوكهم الدنيوي الهابط ، وإن مما يزيد الأمر سوءاً أن من تولى هذه المساومة قد أدرك واعترف بأن المسلمين قد بلغوا من الرقي الأخلاقي درجة عظيمة خولت لهم لفتح الممالك وغلبة الأمم ، وأنهم سيملكون الأرض كلها ، ومع ذلك يساوم بما في جعبته من عروض متدنية .

ولقد كان عبادة بن الصامت رجل الموقف في إجاباته الحكيمة الحارمة حيث قال له : « يا هذا لاتغرّن نفسك ولا أصحابك ، أما ماتخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لانقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ماقلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون لقتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله تعالى إذا قدمنا عليه ، إن قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حيثنذ على إحدى الحسينين ، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله

عز وجل قال لنا في كتابه ﴿ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) وما مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو رَبَّهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ وَأَنْ لَا يَرُدَّهُ إِلَى بَلَدِهِ وَلَا إِلَى أَرْضِهِ وَلَا إِلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا هُمْ فِيمَا خَلَّفَهُ ، وَقَدْ اسْتَوْدَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا رَبَّهُ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ ، وَإِنَّمَا هُمْنَا مَا أَمَانَا .

وأما قولك إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فتحن في أوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذي تريد فينبه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيَّها شئت ، ولا تُطْمَع نفسك في الباطل ، بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبله إلينا .

إما إجابتكم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته ، صلوات الله عليهم ، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فإن فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا ، وكان أخانا في دين الإسلام ، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم ، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدا مابقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم ، وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك

(١) سورة البقرة / ٢٤٩ .

عنكم إذ كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم ، هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم » (١) .

وإننا أمام هذا الكلام الواضح العميق لانملك إلا أن نُكبر أولئك الرجال ، ونعتبرهم النماذج العالية في الدعوة والجهاد ، وتنظيم العلاقات بين أمة الإسلام والأمم الأخرى .

وإن من أبرز ملاحظاتنا في هذا الجواب وجميع إجابات قادة الإسلام الأوائل وضوح المبدأ الذي يدافعون عنه وينطقون باسمه ، والتصميم الجازم على الخيارات الثلاثة التي تكررت معنا في كل فتوحات الإسلام باعتبارها من توجيهات النبي ﷺ .

فالقاعدة العامة التي يحملها القادة واضحة لا لبس فيها ، ثابتة لا تتغير ، ولذلك فإنه لا أمل للأعداء بتغييرها عند تغير قادة المسلمين ولا عند إبدال قادة الأعداء بمن هم أكثر فطنة ودهاء .

وإنما الذي يتغير من قائد لآخر هو نوع الأساليب الحربية ، من وضع الخطط وخداع الأعداء ، وتجنيب المسلمين المهالك ، والحصول على أكبر النتائج بأقل الخسائر ما أمكن ونحو ذلك .

ولقد كان عبادة موفقاً تمام التوفيق حينما واجه التخويف بجيش الروم وقوتهم ببيان المعنوية العالية لجيش المسلمين التي تعتمد على الرغبة الخالصة في الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وأنه كلما عظم

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٤ .

الجيش المقابل كان احتمال كثرة الشهداء أكبر ، كما ركز على بيان أن المجاهدين قد فرغوا أذهانهم تماماً مما خلفوه وراءهم من الأهل والأولاد ، واستودعوا ذلك كله ربهم جل وعلا ، فليس في أذهانهم ما يعوقهم عن الإقدام ، وإنما يهيمن عليهم حب رؤية النصر على الأعداء أو الشهادة وذلك يدفعهم إلى الإقدام .

وإن هذا الكلام ليعتبر مطارق من حديد تنزل على رؤوس الأعداء ، فتزيل ما عساه أن يكون بقي فيها من نشوة الإقدام للدفاع عن النفس والوطن .

ولهذا قال المقوقس في جوابه : هذا لا يكون أبداً ، ماتريدون إلا أن تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا .

فقال عبادة : هو ذلك فاختر ما شئت .

فقال المقوقس : أفلا تحيبنونا إلى خصلة غير هذه الخصال ؟ فرفع عبادة يديه وقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء مالكم عندنا خصلة غيرها فاختراروا لأنفسكم .

فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه وقال : قد فرغ القوم فما ترون؟ فأصروا على رفض الجزية ولم يرضوا بالدخول في الإسلام ، فقال المقوقس لعبادة : قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكهم هذه ماتمنيتم وتنصرفون ، فقام عبادة وأصحابه وعادوا وهم على ما عرضوا عليهم من الإسلام أو الجزية أو القتال .

وقد تبادل المقوقس الرأي مع أصحابه وأشار عليهم بعد ذلك بقبول الجزية ولكنهم رفضوا ذلك فلم يكن بُدَّ من القتال .

فتح حصن باب الیون ثم الصلح :

وقد ألح المسلمون بالقتال علی من فی قصر باب الیون حتی كتب الله لهم النصر علیهم (۱) .

وفتح الله للمسلمین ذلك الحصن المنیع ، ولام المقوقس قومه علی عدم قبول الصلح فقال : ألم أعلمكم هذا وأخافه علیکم ، ماتنتظرون؟ فو الله لننجینهم إلی ما أرادوا طوعاً ، أو لنجینهم إلی ما هو أعظم من ذلك کرهاً ، فأطیعونی من قبل أن تندموا ، فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك علی صلح یكون بینهم یعرفونه .

وأرسل المقوقس إلی عمرو بن العاص رضي الله عنه : إني لم أزل حریصاً علی إجابتك إلی خصلة من تلك الخصال التي أرسلت بها إلی ، فأبی علی ذلك من حضرني من الروم والقبط ، فلم یکن لی أن أفتات علیهم فی أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبی صلاحهم ، ورجعوا إلی قولي ، فأعطني أمانا اجتمع أنا وأنت فی نفر من أصحابی ، وأنت فی نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بیننا تم لنا ذلك جميعاً ، وإن لم یتم رجعنا إلی ما كنا فیهِ .

فاستشار عمرو أصحابه فی ذلك فقالوا : لانجیبهم إلی شيء من الصلح ولا الجزية حتی یفتح الله علينا فقال : قد علمتم ماعهد إلی أمير المؤمنین فی عهده ، فإن أجابوا إلی خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إلی فیها أجبتهم إلیها وقبلت منهم مع ماقد حال هذا الماء بیننا و بین مانريد من قتالهم .

(۱) النجوم الزاهرة ۱/ ۱۵ ، فتوح مصر/ ۵۳ .

فاجتمع أمرهم على قبول الصلح وفرض الجزية (١) .

مواقف عالية لبعض المسلمين :

هذا وقد جرت لبعض المسلمين مواقف في أثناء ذلك الحصار ، ومن هذه المواقف ما جاء في رواية ابن عبد الحكم رحمه الله قال : وبينما عبادة بن الصامت رضي الله عنه في ناحية يصلي وفرسه عنده رآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزة ، فلما دنوا منه سلم من الصلاة ووثب على فرسه ثم حمل عليهم ، فلما رأوه ولوا هاربين وتبعهم ، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم ، فصار لا يلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن ، ورُمي عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم حتى رجع إلى موضعه الذي كان فيه فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه (٢) .

وفي هذا الخبر تنكشف لنا أمور مهمة في حياة المسلمين الأوائل فهو مثال رفيع للشجاعة النادرة حيث يقوم عبادة بن الصامت رضي الله عنه بمطاردة قوم من الروم إلى أن لاذوا بحصنهم ، وهذه الشجاعة العظيمة تقوم على قوة تمثّل المبادئ السامية في الذهن ، حيث يعيش المسلم ويموت من أجلها ، ويستهن في سبيلها بنفسه ومستقبله الدنيوي ، فإذا قابله في الميدان من يعيشون لمستقبلهم الدنيوي فإنهم لا يمكن أن يقفوا أمامه مهما كان عددهم وعدّتهم ، لأنهم إنما

(١) النجوم الزاهرة ١٧/١ .

(٢) فتوح مصر / ٥١ ، النجوم الزاهرة ٩/١ .

يحصلون على ما يريدون في هذا المستقبل ببقائهم على قيد الحياة أما المسلم الحق فإنه إنما يحصل على المستقبل الأخرى السعيد ببذل نفسه وماله في سبيل الله تعالى سواء استشهد أو بقي على قيد الحياة .

وفي هذا الخبر مع هذا نموذج من نماذج العفة والترفع عن الدنيا، فحينما أحس عبادة رضي الله عنه أن القوم أرادوا أن يشغلوه بأموالهم ترفع عن هذه الأموال لبيّن لهم أن المال ليس هو هدف المسلمين من الجهاد وإن كان الله تعالى قد أباح لهم الغنائم ليتقووا بها على أعدائهم، ولكن حينما يكون هدف الأعداء مساومة المسلمين عن أنفسهم ومبادئهم بأموالهم فإنها مساومة مردودة لدى أقوىاء الإيمان الذين اتضحت أهدافهم واستقامت مناهجهم لأنهم لا يرضون بالتخلي عن الأهداف السامية مقابل متاع عاجل مهما كان قدره وأثره .

ومن هذا المثل ندرك الحسّ الإسلامي الواضح الذي كان يعمر تفكير أولئك الصالح الكرام، ويجعلهم يسرون في سلوكهم على مقتضى الحكمة والعقل السليم ، فحينما يكون المال غنائم خلفها القتال فإنهم يأخذونها كما أباحها الله تعالى ويصرفونها في مصارفها الشرعية ، ولكن حينما يكون المال مساومة على المبادئ السامية فإنهم يترفعون عن أخذه وينزهون أنفسهم عن الإخلال بمبادئهم من أجله .

ونجد مع ذلك أن هذا الخبر يحتوي على مثل من الأمثلة الكثيرة التي تبين لنا مدى سلاح الرعب الذي يُنصر به المسلمون الأتقياء، وهذا السلاح الفعال يوفر على المسلمين بذل طاقات كبيرة ، بينما يشل من حركة الأعداء ويبدد طاقتهم .

ومن المواقف المذكورة في ذلك مغامرة الزبير بن العوام رضي الله عنه حينما صعد على سور الحصن وحده ، وقد جاء خبر ذلك في رواية ابن عبد الحكم قال : فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير : إني أهب نفسي لله تعالى ، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره يجيبونه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف ، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً أن ينكسر السلم ، وكبر الزبير تكبيراً فأجابه المسلمون من خارج ، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً الحصن فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن (١) .

وهكذا تم الفتح الذي طال انتظاره على يد ليث من ليث الإسلام ، وبطل من أبطاله العظماء ، فلقد باع الزبير بن العوام نفسه رخيصة لله تعالى ، وفدى بها إخوانه ، فصعد إلى أعلى السور بمفرده ، وفي ذلك من الأخطار ما لا يتصور قدره ، فإن الاحتمال المتبادر في ذلك أن يكون غرضاً لسهام الأعداء حتى يُردوه قتيلاً ، ولكن الله تعالى أراد أن يكون الفتح على يديه فأعمى بصائرهم عنه ، وذهلوا بسماع التكبير الذي هو أقوى على الأعداء وأنكى بهم من القذائف الفتاكة .

ولعلمهم رأوا أنه من المستحيل أن يفادي رجل بنفسه فيصعد وحده

(١) فتوح مصر / ٥٢ .

فوق السور ، فإنهم لم يروا في حياتهم من يُرخص نفسه بهذه الصورة المذهلة ، فتوقعوا أن المسلمين استطاعوا أن يصعدوا السور ، وأن هذا الذي بدا لهم ماهو إلا طليعة المتسلقين ، خصوصاً وأن الأرض قد ارتجت من تكبير المسلمين ، ففضلوا السلامة ، ولاذوا بالفرار .

موقف عدالة من أمير المؤمنين عمر :

هذا وما يتعلق بهذا الفتح من المواقف موقف من مواقف العدل لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ويتلخص موضوع ذلك في أن عمرو بن العاص قد عقد هدنة بينه وبين الأعداء لمدة خمسة أيام، ولكن العدو خلالها هجم منه طائفة على المسلمين ليلاً، وكان عمرو وجيشه على استعداد فقتلوهم وسبوا منهم وضمن حولهم، فلما انتهى الفتح جاء الراهبان اللذان عقدا الصلح يطالبان عمرو بن العاص بما كان من السبي خلال الهدنة فرفض عمرو وذكرهما بما كان من الغدر من قومهما .

فلما علم عمر رضي الله عنه بخبر الراهبين ، قال : ألا أراهما يبصران وأنت تُجاهلون ولا تبصرون، من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقاتلكم فأصابه منكم شيء ومن أهل القرى فله الأمان في الأيام الخمسة حتى تنصرم ، وبعث في الآفاق حتى رد ذلك السبي^(١) .

وهذا مثل من أمثلة عدل عمر رضي الله عنه الذي اشتهر به حتى مع أعدائه ، ولقد كان لهذا وأمثاله من صور العدل التي عامل بها الصحابة رضي الله عنهم أعداءهم الأثر الكبير في إقبال الناس على الدخول في الإسلام .

(١) تاريخ الطبري ١٠٩/٤ .

موقف في الدهاء لعمر بن العاص :

ومن المواقف التي جرت بعد فتح حصن باب اليون موقف لقائد المسلمين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقد جاء ذلك في رواية أخرجه الإمام الطبري ، وفيها : أن القبط حضروا باب عمرو ، وبلغ عمراً أنهم يقولون : ما أَرثَ العرب وأهون عليهم أنفسهم ! مارأينا مثلنا دان لهم ! فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجُرير فذبحت فطبخت بالماء والملح ، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا وأعلموا أصحابهم ، وجلس وأذن لأهل مصر ، وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلاً عريياً ، انتشلوا وحسوا وهم في العباء ولا سلاح ، فافترق أهل مصر وقد زادوا طمعاً وجرأة ، وبعث في أمراء الأجناد في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا ، وأذن لأهل مصر ، فراوا شيئاً غير مارأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بالوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحووا نحوه ، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا .

وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غداً ، وغدا على العرض وأذن لهم ، فعرضهم عليهم ، ثم قال : إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب ، وهونَ تَزَجِيتهم ، فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت أن أريكم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في الحرب ، فظفروا بكم ، وذلك عيشهم وقد كَلَبُوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها مارأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير

تارك عيش اليوم الثاني إلى عيش اليوم الأول ، فتفرقوا وهم يقولون :
لقد رَمَتكم العرب بِرَجُلِهِمْ .

وبلغ عمر رضي الله عنه فقال لجلسائه : والله إن حربه لَكَيِّنةٌ مالها
سطوة ولاسورة كَسَوْرَاتِ الحروب من غيره ، إن عمراً لَعِصَ - يعني
رجل داهية - ثم أمره عليها وقام بها (١) .

وهذا مثل من دهاء عمرو بن العاص وخبرته الدقيقة بغوائل
النفوس وأدوائها ، وبَلَسَمِ شفائها ، فلقد قرأ في وجوه الأعداء
الاستهانة بأمر المسلمين ، لَمَّا رَأَوْا من زهدهم وبساطة عيشهم ، وخاف
من منطقهم احتمال هيجان نفوسهم نحو إثارة العصيان ، والعودة إلى
القتال ، وفي ذلك هلاك لهم وَعَنْتٌ شديدة على المسلمين ، فأراهم في
اليوم الأول حال المسلمين وهم في بلادهم ، ثم أراهم إياهم وهم
يعيشون عيشة أهل مصر المترفثة ثم عرضهم عليهم في اليوم الثالث
وهم مسلَّحون ، ثم خاطبهم بالمنطق الذي يفهمونه ، وهو أن من تحول
عن معيشة الشظف والشدة إلى معيشة الترف والنعيم لن يعود إلى
المعيشة الأولى وهو يملك السلاح الذي يقاتل به ، والقوة التي تحمل
هذا السلاح ، فأرعبهم بذلك ، واقتلع من رؤوسهم وساوس الشيطان
الذي زين لهم سابقاً هَوَاً أمر المسلمين ، وإمكانية التغلب عليهم .

ولا شك أن تلك الكلمات التي تحمل التهوين من شأن المسلمين
لرثاة مظهرهم لم تصدر من عقلاء القوم ، لأن العقلاء يدركون أن
المظاهر من الطعام والشراب واللباس لاتقدّم ولا تؤخر في قضايا الحرب

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١١٠ .

والسياسة ، وإنما صدرت من العامة وهم الكثرة في كل الأمم، ولهم وزن اجتماعي مؤثر، فكان لابد لقائد عبقرى مثل عمرو بن العاص رضى الله عنه أن ينزل إلى مستواهم ، وأن يداوى أدواءهم بما يناسبها .

ومن هنا نعلم أن اقتصار بعض الدعاة والقادة على اجتذاب المفكرين والطبقات الخاصة يعتبر خللاً يؤثر على نجاح مهمتهم فلا بد من مخاطبة كل فئات المجتمع وأن يكون محتوى الخطاب وأسلوبه مناسباً لكل طبقة .

وإن فيما قام به عمرو بن العاص من هذا المنهج البديع الذي سلكه مع عامة أولئك القوم لقطعاً لدابر أي فتنة ربّما اغتتمها مفكرو القوم لتدبير انتفاض على المسلمين لاتحمد عقباه ، فكان عمرو رجل الموقف الذي قد أعد للمشكلات حلولها منذ ظهور أول بوادرها، ولذلك أثنى عليه أمير المؤمنين عمر ، ووصفه بالدهاء والمكر بالأعداء .

موقف رحمة من عمرو بن العاص :

هذا ولما انتهى فتح حصن باب اليون أراد عمرو بن العاص التحول من مكانه ذلك ، وأمر بالرحيل لاستكمال فتح مصر، فحدثت حادثة واجهها عمرو بن العاص بسلوك إسلامى رفيع يدل على عمق تخلقه بمكارم الأخلاق، وقد ذكر ذلك ابن عبد الحكم رحمه الله حيث يقول : لما فتح عمرو بن العاص الحصن، وهو المسمى الآن بقصر الشمع فكان فسطاطه قبالة الحصن، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع الفسطاط من ذلك المكان ، فلما أرادوا ذلك

وجدوا عليه عُشٌّ يمامة قد باضت وأفرخت، فقال عمرو: اتركوا
الفسطاط على حاله احتراماً لليمامة التي عشَّشت عليه (١) .

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم : أن عمرو بن العاص لما
أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بقي بها من الروم أمر بنزع
فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرَّم منا
بمحرَّم ، فأمر به فأقرَّ كما هو ، وأوصى به صاحب القصر (٢) .

وهذا شاهد حيٌّ على ما كان يتمتع به المسلمون الأوائل من الرحمة
والعطف والمواساة ، فلم تكن الحروب المتواصلة ومشاهد القتل والدماء
عاملاً على قسوة قلوبهم وميلها إلى العدوان والانتقام بل وجدهم
العالمُ رحماءَ برة أوفياء ، ولا أدل على هيمنة الرحمة على قلوبهم
من هذا الخبر ، حيث ترك عمرو فسطاطه رحمة بالحمامة التي عشَّشت
عليه وفرخت فيه .

وإذا كان هذا القلب الكبير قد حنَّ على حمامة فأبقى خيمته من
أجل أن لا تُفجع بفراخها، أفلا يكون حانياً على بني البشر إذا هم
تخلوا عن طغيانهم وأبصروا طريق الحق ؟!

إن هذا السلوك العالي يعتبر من أهم وسائل الدعوة إلى الإسلام
فالذين يمرون على ذلك الفسطاط القائم وحده من أجل تلك الحمامة
وفراخها، والذين يسمعون بهذا الخبر سيتساءلون عن الدوافع التي
دفعت هذه الأمة إلى أن تكون قوية إلى أعلى غايات القوة في القتال،

(١) بدائع الزهور ١/ ١٠٣ .

(٢) فتوح مصر / ٦٨ .

ورحيمة رقيقة إلى أسمى درجات الرحمة والرقّة في حال السلم ،
فكيف جمعت بين هذه الخصال التي ظاهرها التناقض ؟

والذي يجيب على هذا التساؤل هو البحث عن حقيقة الدين
العظيم الذي خضعت له هذه الأمة ، وأصبح هو المهيمن على
تصوراتها وسلوكها في هذه الحياة ، لأن هذا الدين هو الذي جمع الله
به بين قبائل العرب حتى تكونت منهم النواة الأولى للأمة الإسلامية ،
فكل محاولات العظمة ، وجميع نواحي الابداع التي تمت من قادة
المسلمين وجنودهم إنما هي من ثمرات الهداية إلى هذا الدين العظيم .

وأخيراً فإننا نجد في هذا الخبر لفظة مهمة نحو استشعار أولئك
العظماء رقابة الله عز وجل في كل خطوة يخطونها ، فلو أن هذا
القائد العظيم أمر بإزالة الفسطاط فمن الذي سيلومه على هذا
التصرف ؟ لكنه يعلم أن الله تعالى مطلع عليه فهو يراقبه جل وعلا ،
ويعلم أن معيته سبحانه لعباده بالنصر والتأييد إنما تكون بمعيتهم له
بالطاعة والخضوع والتعظيم ، وإنما يستنزل المسلمون نصر الله سبحانه
برحمتهم خلقه الضعفاء وإن كانوا من العجماوات التي لاحول لها
ولا قوة .

* * *

٤ - فتح الإسكندرية -

توجه عمرو بجيشه نحو الإسكندرية ، وفي طريقه إليها جرت بينه وبين أهل تلك البلاد حروب كان النصر فيها حليف المسلمين ، ومن المواقف التي تذكر في ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص أصيب بجراحات كثيرة في معركتهم مع أهل الكريون فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال عبد الله : أقول إذا ماجاشت النفس اصبري ، فعما قليل تُحمدي أو تلامي ، فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال فقال عمرو : هو ابني حقاً (١) .

وهذا موقف من مواقف الصبر والتحمل يذكر لعبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما الذي اشتهر بالعلم والعبادة ، فجمع إلى ذلك الشجاعة والصبر على الشدائد .

ووصل عمرو بجيشه إلى الإسكندرية فحاصرها وكان فيها أكبر خامية للروم ، وكانوا يهتمون بها كثيراً ، كما جاء في رواية لابن عبدالحكم أن رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم ، وكان ملك الروم يقول : لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم ، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية حيث غلبت العرب على الشام ، فقال الملك : لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلك الروم ، وانقطع ملكها ، فأمر بنجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسها

(١) فتوح مصر / ٥٧ .

إعظاماً لها، وأمر أن لا يتخلف عنه أحد من الروم ، وقال : ما بقاء الروم بعد الإسكندرية! فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى المسلمين مؤنته ، وكان موته في سنة تسع عشرة ، فكسر الله بموته شوكة الروم ، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية^(١) .

وهكذا تبين لنا بوضوح أن الله سبحانه مع أوليائه المؤمنين بنصره ودفعه وتأنيده ، فالروم حينما فقدوا الشام وجدوا من الإسكندرية عوضاً عنها فركزوا اهتمامهم بها، وحينما علم هرقل بغزو المسلمين لها قال كلمته المذكورة : لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلك الروم وانقطع ملكها ، فعزم على تجهيز جيش عظيم يقوده بنفسه للدفاع عنها ، ولو تم ذلك لوجد المسلمون منه مشقة عظيمة ، ولكانوا بحاجة إلى إمدادات كبيرة ، وربما اضطروا لسحب بعض جيوشهم من الشام ، وفي ذلك إضعاف لوجودهم فيها .

ولكن الله سبحانه سلّم المسلمين من هذا البلاء العظيم حيث أخذ روح هرقل ، ولما يغادر بلاده ، فرجع أكثر الجيش الذي كان توجه إلى الإسكندرية .

ومن هنا نعلم أن على المسلمين أن يسعوا في جهادهم مع الأعداء بما لديهم من إمكانيات وقوة، مع التوكل على الله تعالى ، وأن يؤمنوا بأنه جل وعلا يتولى أمرهم في الخروج من المحن والشدائد التي يفاجئون بها .

من أمثلة دهاء عمرو وبديهته :

ومن مواقف الذكاء والدهاء التي تذكر لعمرو بن العاص رضي

(١) فتوح مصر / ٥٨ .

الله عنه مارواه ابن عبد الحكم من رواية يزيد بن أبي حبيب قال :
خرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية فحملوا على الناس
فقتلوا رجلا من مهرة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به ، فجعل المهيرون
يتغضبون ويقولون : لاندفنه أبداً إلا برأسه ، فقال عمرو بن العاص :
تتغضبون كأنكم تتغضبون على من لا يبالي بغضبكم ، احملوا على
القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرموكم برأس
صاحبكم ، فخرجت الروم إليهم ، فاقتلوا ، فقتل من الروم رجل
من بطارتهم فاحتزوا رأسه فرموا به إلى الروم ، فرمت الروم برأس
المهري إليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم (١) .

وهكذا نجحت خطة عمرو الذكية في استشارة الأعداء ، وذلك
بالتظاهر لهم بأن المسلمين لم يبالوا بكيد الأعداء حيث أظهروا لهم
عدم الاهتمام بالاحتفاظ برؤوس القتلى ، فرد عليهم الروم بالمثل
ورموا برأس القتيل المسلم .

ولنفرض أنه لم يحصل شيء من ذلك فيكفي في نجاح خطة
عمرو أنه دفع المهريين إلى الحماس في القتال ، وأوقف ماكانوا فيه من
النقاش الذي عاقهم عن مواصلة القتال .

موقف لأحد المجاهدين :

ومما يذكر من مواقف هذا الفتح ماأخرجه ابن عبد الحكم من
رواية بكر بن عمرو الخولاني : أن عبد العزيز بن مروان حين قدم
الإسكندرية سأل عن فتحها ، ف قيل له : لم يبق ممن أدرك فتحها إلا شيخ
كبير من الروم ، فأمرهم فأتوه به فسأله عما حضر من فتح

(١) فتوح مصر / ٥٩ .

الإسكندرية، فقال : كنت غلاما شابا ، وكان لي صاحب ابن بطريق من بطارقة الروم فأتاني فقال : ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا ! فلبس ثياب ديباج وعصابة ذهب وسيماً مُحَلَّى ، وركب برذونا سمينا كثير اللحم ، وركبت أنا برذونا خفيفاً ، فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف ، فرأينا قوماً في خيام لهم عند كل خيمة فرس مربوط ورمح مركوز، ورأينا قوماً ضعفاء، فعجبنا من ضعفهم ، وقلنا : كيف بلغ هؤلاء القوم مابلغوا؟ فبينما نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام فنظر فلما رآنا حل فرسه فمعه ثم مسحه ووثب على ظهره وهو عُرِي ، وأخذ الرمح بيده وأقبل نحونا ، فقلت لصاحبي : هذا والله يريدنا ، فلما رأيناه مقبلاً إلينا لا يريد غيرنا أدبرنا مولّين نحو الحصن ، وأخذ في طلبنا فلحق صاحبي لأن برذونه كان ثقيلاً كثير اللحم فطعنه برمحه فصرعه ، ثم خضخض الرمح في جوفه حتى قتله ، ثم أقبل في طلبي وبادرت ، وكان برذوني خفيف اللحم فنجوت منه حتى دخلت الحصن ، فلما دخلت الحصن أمنت فصعدت على سور الحصن أنظر إليه ، فإذا هو لما أيس مني رجع فلم يبال بصاحبي الذي قتله ، ولم يرغب في سلّبه ، ولم ينزعه عنه، وقد كان سلبه ثياب الديباج وعصابة من ذهب ، ولم يطلب دابته، ولم يلتفت إلى شيء من ذلك وانصرف من طريق أخرى وأنا أنظر إليه ، وأسمعه يتكلم بكلام ورفع به صوته ، فظننت أنه إنما يقرأ بقرآن العرب ، فعرفت عند ذلك أنهم إنما قووا على ماقووا عليه وظهروا على البلاد لأنهم لا يطلبون الدنيا ، ولا يرغبون في شيء منها، حتى بلغ خيمته ،

فنزل عن فرسه فربطها، وركز رمحه ، ودخل خيمته ولم يُعلم بذلك أحداً من أصحابه .

فقال عبد العزيز - يعني ابن مروان - : صف لي ذلك الرجل وهيئته وحالته، فقال : نَعَمْ هو قليل دميم، ليس بالثام من الرجال في قامته ولا في لحمه ، رقيق آدم كوسج، فقال عبد العزيز عند ذلك : إنه ليصف صفة رجل يمانى (١) .

وفي هذا الخبر مواقف جليلة ، منها الاهتمام البالغ بأمور الآخرة، وعدم الاكتراث بالدنيا ومظاهرها ، وأن ذلك كان من الأسباب المهمة في انتصارات المسلمين الأولى وقد سبق الكلام على هذا الموضوع .

ومنها شجاعة المسلمين الأوائل ، ومسارعتهم إلى بذل أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى ، وقد تقدم الكلام على ذلك أيضاً .

ومنها محاولتهم إخفاء أعمالهم الصالحة ، وعدم التمدح بما قاموا به من أعمال جليلة قد تدخل في مجال المغامرات ، ومع ذلك فإنهم لا يفاخرون بهذه الأعمال ، ولا يذكرونها ، لأنهم إنما يرجون ثوابها من الله تعالى ، وهو سبحانه مطلع عليهم، وكلما بالغوا في إخفاء عملهم كلما كان العمل أبلغ في الإخلاص .

فهذه القصة المشتملة على التضحية بالنفس والترفع عن متاع الدنيا، والزهد في الجاه والذكر، ما كانت لتُعرف لولا أن راويها الذي شاهدها قصها بعد ذلك .

(١) فتوح مصر / ٥٨ .

وهذا يعتبر من أهم مؤهلات العظمة والسيادة في حياة الجيل الإسلامي الأول .

موقفان لعمر و مسلمة بن مخلد :

هذا ومن مواقف المسلمين في فتح الإسكندرية ما أخرج خبره ابن عبد الحكم من رواية خالد بن نجيح قال : أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالإسكندرية يوماً من الأيام قتالاً شديداً ، فلما استحر القتال بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد ، قصرعه الرومي وألقاه عن فرسه ، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه ، وكان مسلمة لا يقام لسبيله ولكنها مقادير ، ففرحت بذلك الروم ، وشق ذلك على المسلمين ، وغضب عمرو بن العاص لذلك ، وجاء في الرواية أنه اتهم مسلمة بالجبن واشتد عليه بالكلام ، وأن مسلمة غضب من ذلك ولم يراجعه .

قال : ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية فقاتلهم العرب في الحصن ، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعاً من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن ، وأغلقوا عليهم باب الحصن ، أحدهم عمرو بن العاص ، والآخر مسلمة بن مخلد ، ولم نحفظ الآخرين ، وحالوا بينهم وبين أصحابهم ، ولاتدري الروم من هم ، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجؤوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به ، فأمرؤا رومياً أن يكلمهم بالعربية ، فقال لهم : إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ، فامتنعوا عليهم ، ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم

أصحابنا ولا نقتلكم ، فأبوا عليهم ، فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم : هل لكم إلى خصلة وهي نصف بيننا وبينكم ، أن تعطونا العهد ونعطيكُم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل ، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتُم لنا وامكثتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خَلَّينا سبيلكم إلى أصحابكم فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه ، وعمر ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس ، فتداعوا إلى البراز ، فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته ، وقالوا : يبرز رجل منكم لصاحبنا ، فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال : ماهذا تخطئ مرتين ، تشذ عن أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة نحوك ، ولا يدرون ما أمرك ، ثم لا ترضى حتى تبارز وتعرض للقتل ، فإن قُتلت كان ذلك بلاء على أصحابك ، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله ، فقال عمرو : دونك فرجها الله بك ، فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة ، ثم أعانه الله عليه فقتله ، فكبر مسلمة وأصحابه ، ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه ، ففتحوا لهم باب الحصن ولا تدري الروم أن أمير القوم فيهم ، حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك وأكلوا أيديهم تغيطاً على ما فاتهم .

فلما خرجوا استخبي عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب ، فقال عمرو عند ذلك : استغفر لي ما كنت قلت لك ، فاستغفر له وقال عمرو : ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار ، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ، وما منهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت ، وما استحييت من

واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ووالله إنني لأرجو أن
لأعود إلى الرابعة مابقيت (١) .

وهكذا نجد أنفسنا أمام مواقف إسلامية متعددة الأنواع في هذا
الخبر ، فما بين احتمال كبير للأذى والإهانة ، إلى نماذج من الاقدام
والشجاعة ، إلى مظاهر المساواة بين القادة والجنود ، إلى اعتراف القادة
بأخطائهم أمام الجنود واعتذارهم منهم ، كما نرى التجرد من حظ
النفس وتقديم المصلحة العامة .

فبينما نرى مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الذي يُعَدُّ بطلا من أبطال المسلمين
يُقَدِّم على المبارزة بعد بذل مجهود كبير في حرب ضارية ، إذ به يُخفق
في تحقيق النصر على غير المعهود منه ، ولقد كانت هفوة من فارس
كبير ، قيل إنه يعدل ألفا من الرجال ، ولكن لكل صارم نبوة ولكل
جواد كبوة .

ولقد كان وَقَعُ هذا الإخفاق عظيماً على نفوس المسلمين ، وخاصة
عمرو بن العاص حيث تكلم على مسلمة بكلام شديد ، ولكن مسلمة
لم يرد عليه ، ولئن كان عمرو بن العاص مشتهراً بالحلم والحكمة فإنه
قد خرج عما أُلِفَ منه ذلك اليوم ، وأهان فارساً له دوره الكبير في
حياة المسلمين الجهادية .

ولقد كان أثر هذا التصرف كبيراً على عمرو نفسه ، حيث اعتذر
بعد ذلك من مسلمة وأبان له أن هذا التصرف هو أكبر خطأ ارتكبه في
حياته كما جاء في الرواية .

(١) فتوح مصر / ٥٩ .

أما الأعذار التي يمكن أن يعتذر بها عمرو حينما أصدر هذا اللوم العنيف فإنها تظهر حينما نعلم أن المسلمين آنذاك قد امتلكوا سلاح المبارزة ، ولم يعرف أن أحد فرسانهم الكبار هُزم في مبارزة قبل ذلك ، والمبارزة لها أثرها الكبير في رفع معنويات الجيش وخفض معنويات العدو عند الانتصار ، وقد كان كبار القادة يلجئون إليها إذا تأزمت المعركة لرفع معنوية المسلمين كما تقدم لنا من خالد بن الوليد يوم اليمامة .

فلما حصل في معركة الإسكندرية ما حصل من إخفاق مسلمة بن مخلد ، ولصعوبة ماواجهه المسلمون من اعدائهم ، وطول مدة الحصار ، ولما أثقل به فكر عمرو من التخطيط لمواجهة الأعداء ، وتحمل مسئولية الجيش الإسلامي ، ومرارة الاخفاق في إكمال فتح مصر . . لذلك كله وقعت من عمرو هذه الزلة في ساعة غضب ، وكفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معاييه .

ونلاحظ في سكوت مسلمة وعدم رده على عمرو مقدرة فائقة على امتلاك النفس عند الغضب ، فهذا مثال رفيع لخلق الحلم الذي هو من أهم عناصر السيادة .

كما يدلنا ذلك على الأدب العالي الذي كان يتمتع به كبار المسلمين مع قادتهم ، حيث إن الهيئة التي تتكون لقادة المسلمين بموجب لزوم طاعتهم شرعاً ، وبمعاملتهم الإسلامية لجنودهم يجب أن لا تُمتن لهم مجرد خطأ يصدر من القائد لأحدهم .

كما نلاحظ في اعتذار عمرو لمسلمة مثلاً سامياً لتواضع قادة

المسلمين ، وعدم اغتنام مناصبهم لفرض سيطرتهم والتعالي على تابعيهم .

وإذا جمعنا بين تصرف عمرو القائد ومسلمة الجندي في هذه المعركة يتبين لنا أي مستوى أخلاقي بلغه المسلمون الأوائل .

وننتقل إلى المشكلة الصعبة التي واجهها عمرو مع ثلاثة من جنوده حينما انفردوا عن المسلمين داخل حصون الأعداء ، والمواقف الإسلامية التي جرت خلال ذلك .

إن انفرد قائد المسلمين مع ثلاثة من جنوده دليل على حجم المشاركة التي يقوم بها قادة المسلمين في معاركهم مع الأعداء، كما أنه دليل على ضراوة هذه المعركة التي خاضوها، حيث فرقتهم واضطرت القائد إلى أن ينفرد بهذا العدد القليل .

وأمر آخر نلاحظه في هذا الخبر ، وهو أن الروم قطعاً لم يكونوا يعرفون قائد المسلمين ، فلو عرفوه لساوموا عليه أبلغ مساومة، وكون قادة المسلمين غالباً غير معروفين للأعداء إنما هو من ثمرات المساواة التي يعيشها المسلمون، حيث لا فرق في المساكن واللباس بين القادة والجنود ، بينما كان قادة أعدائهم معروفين بتميزهم باللباس والمسكن، فيكونون هدفاً لغارة المسلمين في الغالب، والغريب في الأمر أنهم كانوا لا يتنازلون غالباً عن هذه الطبقة حتى في حال الحرب، مع ما يُعرضهم ذلك من فقدان الأمن والاستهداف للهجوم المضاد .

ومن المواقف البارزة في هذا الخبر أن عمرو بن العاص مع كونه قائد المسلمين قد أستعد لمبارزة الرومي الذي انتخبه الروم لمبارزة أحد

المسلمين الأربعة ، وفي هذا بيان لما يتصف به عمرو بن العاص من الشجاعة والإقدام والتضحية ، ولئن كانت لديه آمال عريضة في حكم مصر وما يترتب على ذلك من الدعوة إلى الإسلام وإقراره على يديه فإنه يؤمن بقضاء الله وقدره ، ويعلم أن إقدامه على المباراة لا يقدم أجله عن مواعده الذي كتبه الله له ، وإلى هذا الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر ترجع نسبة كبيرة من دوافع الإقدام المذهل عند الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين .

ونرى أخيراً في تدخل مسلمة بن مخلد نموذجاً عالياً للفتاء والتضحية حيث عارض عمراً في تقدمه للمبارزة ، وتقدم هو للقيام بهذا الدور الخطير ، وإذا لاحظنا ما تقدم من النقد الشديد الذي وجهه عمرو لمسلمة حينما أخفق في المباراة السابقة يتبين لنا ما جُبِلَ عليه أبناء ذلك الجيل من التجرد عن المصالح الذاتية والتقدم لما فيه مصلحة المسلمين العامة .

وقد يقول قائل : لماذا لم يُقدم الروم على قتال هؤلاء ، وإنما هم أربعة نفر فيفتحوا عليهم الباب بالقوة ويقاتلوهم حتى يقتلوهم أو يأخذوهم أسرى ؟

فأقول : إنهم لم يكونوا يشعرون بأنهم أمام أربعة رجال عاديين وإنما بأنهم أمام أربعة أسود أشاوس ، والروم كسائر الكفار يحافظون أولاً على أرواحهم ، وكل واحد منهم يخشى أن يكون هو الضحية في قتال هؤلاء ، كما لو هجم أسد على مجموعة من الناس فإنهم في الغالب يلجئون إلى الفرار وإن كان معهم أسلحة ، فلذلك فضلوا

التفاوض معهم ، وهذا من أدلة تفوق المسلمين على أعدائهم في الثبات والتضحية .

وقد يقال : لماذا لم يتركوهم محبوسين حتى يموتوا جوعاً أو يفادى بهم المسلمون أنفسهم بأسراهم ؟

فيقال : إن الروم كانوا يخشون من ضراوة هجوم المسلمين وكرتهم عليهم فيما إذا كان لهم أسرى يريدون إنقاذهم ، وقد كانوا يعانون من بأس المسلمين من غير ذلك ، فكيف إذا أضيف إلى دوافع إقدام المسلمين هذا السبب .

فلذلك لجئوا إلى هذا العرض الأخير ، وشجعهم عليه ثقتهم بشجاعة صاحبهم ، فرجوا أن ينتصر فيستأسر لهم المسلمون الثلاثة ليفادوا بهم عن أسراهم لدى المسلمين .

ولكن الله تعالى خيب آمالهم فانتصر مسلمة على صاحبهم .

كتاب من أمير المؤمنين عمر :

لقد ظل المسلمون يحاصرون الإسكندرية عدة شهور ، فلما تأخر فتحها كتب إليهم أمير المؤمنين في ذلك ، كما أخرج ابن عبد الحكم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد لقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلون منذ سنتين ، وماذا لكم إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف ،

إلا أن يكونوا غيرهم ما غير غيرهم ، فإذا أذاك كتابي فاخطب الناس وحُضَّهم على قتال عدوهم ، ورغَّبهم في الصبر والنية ، وقَدِّم أولئك في صدور الناس ، وأمر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فلإنها ساعة تنزل ووقت الإجابة ، وليعجَّ الناس إلى الله تعالى ويسألوه النصر على عدوهم .

فلما أتى عمرَ الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر ، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر ، ففعلوا ففتح الله عليهم (١) .

وفي هذا الكتاب الذي يستبطن فيه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فتح بقية البلاد المصرية نجده يذكر الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر الإسكندرية بلزوم حياة الزهد وعدم الجنوح نحو حياة الترف ، ويعزو تأخر الفتح لما قد يكون الجنود المسلمون أحدثو من فعل معصية أو تكاسل عن طاعة أو ميل إلى متاع الدنيا من المال أو الجاه ، ثم يوجه الجيش إلى صدق النية مع الله تعالى ، والتزام الصبر لأن النصر مع الإخلاص والصبر .

وأخيراً يوجه أمير المؤمنين قائد الجيش الإسلامي إلى التزام خطة من الخطط الحربية التي يراها أنجح في بلوغ المقصود ، وهي أن يكون الهجوم بشكل موحد في وقت واحد ، بحيث تكون الهجمة من جميع

(١) فتوح مصر / ٦٠ .

الجيش كهجمة رجل واحد ، وحينما تكون الهجمة الموحدة فإن العدو لا يستطيع أن يقف أمام هؤلاء المقاتلين ، لأن قوة اثني عشر ألفا تجتمع فتكون كتلة واحدة ، وهذا مستفاد من توجيه الله تعالى عباده المؤمنين إلى التضامن والتلاحم وتوحيد الهجوم حيث يقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بِنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (١) .

إنه حينما يجتمع عشرة رجال على دفع كتلة ثقيلة أوجرها فإنهم ينجحون حينما تتفق قوتهم في وقت واحد ، ويفشلون حينما تتفاوت قوتهم في التوقيت ولذلك كان هذا التوجيه في غاية الأهمية ، لأن تطبيق الهجوم الجماعي الموحد إما أن يقضي على قوة الأعداء لقوة اندفاعه ، وإما أن يحدث في جيشهم شرخاً كبيراً يتسبب في فصل قواتهم وإضعافها .

ولم يُغفل عمر رضي الله عنه في هذا التوجيه أن يذكر الجيش الإسلامي بأهمية الاتصال بالله تعالى ، واستئصال النصر منه ، وهو الأهم في هذا الموضوع ، فوجههم إلى اختيار الوقت الأفضل للهجوم حيث ساعة الإجابة ونزول الرحمة يوم الجمعة ، وفي هذا جمع بين فعل الأسباب الممكنة في طلب النصر مع التوكل على الله تعالى وحده .

استشارة عمرو أهل الرأي ونهاية المعركة :

أما موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه من ذلك فقد ضجر هو أيضاً من تأخر الفتح ، فاستشار كبار أصحابه في هذا الأمر ، يبين

(١) سورة الصف / ٤ .

ذلك مارواه ابن عبد الحكم : أن عمرو بن العاص قال لمسلمة بن مَخْلَد : أشر عليّ في قتال هؤلاء ، فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذي يياشر القتال ويكيفيك ، قال عمرو : ومن ذلك؟ قال : عبادة بن الصامت .

قال : فدعا عمرو عبادة فأتاه وهو راكب على فرسه ، فلما دنا منه أراد النزول ، فقال له عمرو : عزمت عليك أن لا تنزل ، ناولني سناناً رمحك ، فناوله إياه ، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم ، فتقدم عبادة مكانه فصاف الروم وقتلهم ، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك .

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم قال : لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية استلقى على ظهره ، ثم جلس فقال : إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا ما أصلح أوله - يريد الأنصار - فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك (١) .

وهذه مشورة صادقة ، ورأي صائب ، فإن القائد العام الذي هو المسئول الأول عن الجيش لا يكون همه الأول هو الإقدام المندفع ، بقدر ما يكون همه الحفاظ على مركز القيادة ، حتى لا يكون عرضة للاجتياح من الأعداء ، فيكون سبباً في حصول الخلل في الجيش ، فإذا أناب القائد العام من يتولى عنه القيادة المباشرة ممن يشتهرون بالشجاعة

(١) فتوح مصر / ٦٠-٦١ .

والتجرد ، فإن الشيء الذي سيشغل بال هذا القائد هو الإقدام بقوة للحصول على النصر ، لأن إصابته لاتعني إصابة الجيش ، ولا وقوع الخلل فيه .

هذا وإن تنازل عمرو بن العاص عن القيادة لعبادة بن الصامت يشبه تنازل أبي عبيدة بن الجراح في اليرموك ، حينما أسند القيادة لخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين .

وهذا التنازل يدل دلالة واضحة على أن أولئك الصحابة لم يكن هدفهم أن يبنوا أمجاداً لأنفسهم ، ولا أن يخلّدوا ذكركم ، ولو كانوا يلاحظون هذا الهدف ماكان منهم هذا التنازل ، حتى لا يذهب شرف الانتصار لغيرهم .

وهذا التنازل مبعثه شعور القائد بأنه قد استنفذ كل طاقته في القيادة ، ويرجو أن يتم ما استغلق من أمر الفتح على يدى من يتوسم بهم الخير ويتفائل بصلاحيهم ، فيلغي من حسابه ذاته وسمعته ليحافظ على أمر الأمة ومصلحتها .

ولو أن جميع المسؤولين لاحظوا هذا الهدف السامي فأسندوا مهماتهم أو بعضها لغيرهم من أهل الكفاءة ، رجاء تحقق النجاح على أيديهم لتجنب الأمة كثيراً من أسباب الفشل ، ولتقدمت كثيراً في معارج الكمال .

وفي الحقيقة فإن من صنع ذلك يكتسب من السمعة ثناء أهل الصلاح والعقول الراجحة ، وإن لم يقصد ذلك ، لأنهم سيكبرون فيه زهده في الرئاسة والصدارة ، ويقدرّون اهتمامه الكبير بمصلحة أمته ، ونجاح مهمته .

هذا وإنني لأريد أن أترك هذه الرائعة من السلوك العالي دون أن أنوه بموقف عمرو حينما ألح على عبادة بأن لا ينزل عن فرسه وألبسه عمامته بيده وهو فوق فرسه ، وفي ذلك تكريم لأهل الفضل ، ورفع لمكانتهم في المجتمع ، وهو إضافة إلى ذلك يعتبر شاهداً حياً على ما كان يتصف به قادة المسلمين الأوائل من العقل الراجح ، والتواضع الجم .

ومما جاء في أخبار هذا الفتح ما أخرجه ابن عبد الحكم عن جنادة ابن أبي أمية قال : دعاني عبادة بن الصامت يوم الإسكندرية وكان على قتالها ، فأغار العدو على طائفة من الناس ، ولم يأذن لهم بقتالهم فسمعتني فبعثني أحجز بينهم ، فأتيتهم فحجزت بينهم ، ثم رجعت إليه فقال : أقتل أحد من الناس هنالك ؟ قلت : لا ، قال : الحمد لله الذي لم يقتل أحد منهم عاصياً (١) .

وهذا يعني أنهم استمروا في الهجوم على الأعداء ولم يكتفوا بالدفاع ، وهذا الأمر لا بد فيه من إذن القائد ، وقد حكم عبادة على من فعل ذلك بالعصيان وحمد الله تعالى أنهم لم يموتوا على ذلك ، وهذا يدل على مقدار اهتمام قادة المسلمين بتنظيم أمور الجيش ومن ذلك لزوم طاعة القائد واستئذانه في أي عمل يُقدم عليه الجنود ، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين النتائج السيئة المترتبة على معصية القائد ، أو التصرفات الفردية .

(١) فتوح مصر / ٦١ .

رسول من عمرو إلى أمير المؤمنين بالفتح :

هذا وقد بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر ابن الخطاب بشيراً بالفتح فقال له معاوية : ألا تكتب معي ؟ فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب ؟ ألسنت رجلاً عربياً تُبَلِّغُ الرسالة وما رأيت وحضرت ؟ فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجداً وقال : الحمد لله .

ذكره ابن عبد الحكم ، ثم ذكر عن معاوية بن خديج أنه قال : بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد ، ثم دخلت المسجد فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأيتني شاحباً على ثياب السفر ، فأتتني فقالت : من أنت ؟ قال : فقلت : أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص ، فانصرفت عني ، ثم أقبلت تشتدُّ أسمع حفيف إزارها على ساقها - أو على ساقها - حتى دنت مني فقالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك ، فتبعتها ، فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية ، فخرج معي إلى المسجد ، فقال للمؤذن ، أذن في الناس ، الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، فقممت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال : يا جارية هل من طعام ؟ فأتت بخبز وزيت ، فقال : كل فأكلت على حياء ، ثم قال : كل ، فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت أكلاً لأكلت معك ، فأصبت على حياء ، ثم

قال : يا جارية هل من تمر ؟ فأتت بتمر في طبق فقال : كل ، فأكلت على حياء ، ثم قال : ماذا قلت يامعاوية حين أتيت المسجد قال : قلت أمير المؤمنين قائل - أي نائم في الظهيرة - قال : بئس ما قلت - أو بئس ما ظننت - لئن نمت النهار لأضيّع الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيّع نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية (١) .

ومن هذا الخبر نستنتج أن المسجد في عصر الإسلام الأول كان يمثل أهم وسائل الإعلام ، حيث يجتمع المسلمون فيه ببدء الصلاة جامعة ، وهذا النداء يعني أن هناك أمراً مهماً سيتم إبلاغه لعموم المسلمين فإذا اجتمعوا أُلقيت عليهم البيانات العسكرية ، والأمور السياسية والاجتماعية وغير ذلك .

وإذا كان الفكر قد يجنح إلى أن هذه هي الوسيلة المتاحة لهم في ذلك الوقت ، فينبغي أن لا نغفل عن ملاحظة مهمة وهي ما يضيفه جو المسجد الروحي من ضرورة الالتزام بمكارم الأخلاق ، والبعد عن مساوئها ، فليس من المتوقع ممن قام يلقي بياناً ، أو يصدر تعليمات في المسجد أن يقع منه الكذب والتزوير ، ولا أن يغتنم غفلة الناس ليصوغ تصوراتهم كما تملي عليه أهواؤه ومصالحه الخاصة ، أو مصالح من يعملون معه ، أو يعمل لصالحهم .

وهذا لا يعني أن الصحابة رضي الله عنهم لو أذاعوا هذه البيانات ونحوها خارج المسجد لوقع منهم التزوير والتضليل فإن إيمانهم القوي يحميهم من ذلك ، ويصاحبهم حيثما حلوا وأينما ارتحلوا ، ولكن

(١) فتوح مصر / ٦٢ .

المسجد يعتبر وسيلة من وسائل الضمانات التي تساعد على الالتزام بمكارم الأخلاق .

كما نستفيد من هذا الخبر وصفاً لحياة عمر رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين ، حيث يقول لمعاوية بن خديج ، لئن نمتُ النهار لأضيعنَّ الرعية ، ولئن نمتُ الليل لأضيعنَّ نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية .

وهذا يدل على كمال اليقظة لحق النفس وحقوق الآخرين ، وإذا استطاع المسلم أن يجمع بين مراعاة ذلك كله فإنه يكون من المتقين المحسنين .

فالليل فرصة عظيمة للعمل الصالح ، فإن كثرة الصلاة تزيد من الحسنات ، وترفع رصيد المؤمن عند ربه تعالى يوم القيامة ، كما أنها تُقَوِّي قلبه على تحمل الشدائد والمشكلات التي يواجهها مع الناس في النهار ، فلا بد لكل مسلم ، وخاصة مَنْ يتحمل مسئوليةً في أمته أن يتزودَّ بالصلاة ، وكلما كان زاده منها أكبر كان احتمالاه لمواجهة الناس أقوى ، ولذلك قرن الله سبحانه بين أمر نبيه ﷺ بقيام الليل والإخبار بضخامة المسئولية المنوطة به حيث يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نَصَفَهُ أَوْ انْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (١) .

والنهار فرصة للعمل الصالح من ناحية أداء المسئولية التي تحملها المسلم نحو إخوانه المسلمين ، بأن يؤدي حقوقهم كاملة ، وكلما زادت

(١) سورة المزمل / ١ - ٥ .

حساسية المسلم نحو شعوره بالمسئولية فإنه يضاعف من عمله ، حتى لا يستطيع أن يجد إلى الراحة سبيلا .

وأمر المؤمنين عمر رضي الله عنه يشير بقوله هذا إلى هذه المعاني وغير ذلك مما يدركه بحسه الإيماني القوي ، ولاشك أنه قد بلغ الدرجات العلى في مراعاة المسئولية وأداء حقوق الناس .

هذا وفي هذا الخبر وما سبقه ما يفيد بأن الإسكندرية فتحت عنوة ، ولكن جاء في روايات أخرى ما يفيد بأنها فتحت صلحا ، من ذلك ما جاء في رواية أخرجه الإمام الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن زياد بن جزء الزبيدي - وكان في جند عمرو بن العاص - وقد جاء في هذه الرواية أن صاحب الإسكندرية عرض على عمرو أن يدفع إليه الجزية في مقابل أن يرد عليه ما أصاب المسلمون من سبايا أرضه ، وأن عمراً راسل في ذلك أمير المؤمنين وأن عمر أجابه بقوله : أما بعد فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن تردَّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه ، ولعمري الجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليَّ من فيَّ يقسم ، ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومهم فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومهم وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل بيته ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإننا لانقدر على ردِّهم ولانحب أن نصالحه على أمر لانفي له به .

قال : فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين، قال : فقال : قد فعلتُ ، قال : فجمعنا ما في أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأني بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تُفْتَحُ القرية، قال : ثم نحوزه إلينا، وإذا اختار النصرانية نَخَرَتِ النصارى ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه رجل منا خرج إليهم، قال : فكان ذلك الدَّأْبُ حتى فرغنا منهم .

وقد أتى فيمن أثينا به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن - قال القاسم : وقد أدركته وهو عريف بني زييد - قال : فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية - وأبوه وأمه في النصارى - فاختار الإسلام فحُزِنَاهُ إلينا - ووثب عليه أبوه وأمه وإخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه ، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى (١) .

وإن هذا يعتبر شاهد صدق على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العزوف عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، والرغبة الصادقة في هداية العالمين إلى الإسلام ، فإن دخول الأسرى في الإسلام لا يفيد المسلمين شيئاً من الدنيا . وبقاؤهم على دينهم يتضمن فائدة دنيوية لهم حيث يُلْزَمُونَ بدفع الجزية للمسلمين ، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يأمر بتخيير الأسرى بين الإسلام أو دفع الجزية .

وحينما تم تطبيق ذلك كان الصحابة ومن معهم من المسلمين

(١) تاريخ الطبري ١٠٥/٤ .

يكبرون تكبيراً أشد من تكبير الفتح حينما يختار أولئك النصارى دين الإسلام، ويجزعون جزعاً شديداً حينما يختارون البقاء على دينهم، حتى كأن أولئك الأسرى من ضمن جماعة المسلمين وخرجوا عن دين الإسلام .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن بقاء الكفار على دينهم ورضاهم بدفع الجزية كان هو الخيار الاضطراري عند المسلمين، وأنهم كانوا يفضلون عليه دخول الكفار في الإسلام ويتحمسون لذلك .

وكونهم يجزعون حينما يختار الأسرى البقاء على دينهم مع دفع الجزية دليل على أن المسلمين كانوا يفهمون جيداً أن استرقاق هؤلاء السبي لا يعني إذلالهم ولا استخدامهم ، وإنما يعني تهية الجو للملائم لهم ليتفهموا الإسلام حيث يعيشون فترة من الزمن في بيوت المسلمين، فيشاهدون صلواتهم وأخلاقهم العالية ، مع ما يؤملون من عتقهم إذا أسلموا فيكون مجموع ذلك دافعاً لهم إلى الدخول في الإسلام .

وتعبير الراوي عن مشهد اختيار أولئك لدينهم بقوله « وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه رجل خرج منا إليهم » دليل على أن أولئك المؤمنين المتقين قد قطعوا مراحل في محاولة إدخال أولئك النصارى في الإسلام ، فكأنهم انتزعوا منهم وقد أوشكوا على بلوغ مقاصدهم من دعوتهم .

وكون بعضهم قد اختار الإسلام دليل على سرعة تأثير أولئك المسلمين في اجتذاب الكفار إلى الإسلام ، حيث لم يمض إلا وقت قليل بين أسرهم ودخولهم في الإسلام .

وإننا لنستطيع أن نعرف اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بخلق
الوفاء من قول عمر رضي الله عنه في كتابه « فأما من تفرق من
سببهم بأرض العرب ، فبلغ مكة والمدينة واليمن فإننا لانقدر على
ردهم ، ولانحب أن نصالحه على أمر لانفي له به » فعمر رضي الله
عنه ينظر إلى الوفاء بالعهد قبل إبرام الاتفاق مع الأعداء ، حتى
لا يكون المسلمون في وضع لا يستطيعون فيه الوفاء ، وهذا الخلق يعتبر
مرحلة عالية في الوفاء ، لأن من يبرم اتفاقية على أمر ثم لا يستطيع
الوفاء به يكون معذوراً ، ولكن حينما يفكر بعمل الاحتياطات اللازمة
لموضوع الوفاء بالعهد حتى لا يجد نفسه بعد ذلك عاجزاً عن الوفاء ،
فهذا نهاية التدبير ، وغاية النظر الثاقب .

وما جاء في هذه الرواية من ذكر أبي مريم بن عبد الرحمن الذي
كان نصرانياً فأسلم ، ثم رفعه إسلامه بعد ذلك إلى أن أصبح عريقاً
على قبيلة بني زبيد العربية ، يدل دلالة واضحة على تجرد المسلمين
آنذاك من العصبية ، وأن مقياس الكرامة في الإسلام الذي شرعه الله
تعالى بقوله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) كان
مطبقة في عصور الإسلام الزاهرة .

وهذا الخبر يفيد بأن الإسكندرية فتحت صلحاً ، والجمع بينه وبين
النصوص المتقدمة التي تفيد بأنها فتحت عنوة أن نتائج الحروب كانت
لصالح المسلمين ، وأن رواة المسلمين سموا النصر الأخير فتحاً ، وأنه
لما رأى ذلك صاحب الإسكندرية وأدرك أن بلاده ستفتح عرض الصلح

(١) سورة الحجرات / ١٣ .

المذكور ، فتسامح معه المسلمون وقبلوا ذلك ، لأن المفترض أن يكون الصلح قبل القتال ، وقد مر علينا سابقاً في فتح مصر أن عمرو بن العاص قبل الصلح بعد القتال ، وأن بعض الصحابة عارضوه في ذلك ولكن أقره على ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين .

هذا وبفتح الإسكندرية تم فتح جميع البلاد المصرية ، وكانت آنذاك أبرز بلادها .

وإن الذي يتأمل في فتح مصر يجد المسلمين عاملوا أهل تلك البلاد بالرفق واللين أكثر مما عاملوا غيرهم ، وقد تقدم أن النبي ﷺ أخبرهم بفتح مصر وأوصاهم بأهلها خيراً وذكر أن لهم ذمة ورحماً ، ولا شك أن الصحابة كانوا يلاحظون ذلك .

هذا إضافة إلى أن أهل البلاد من الأقباط كانوا يميلون إلى المسلمين ، ويرون فيهم سبباً للخلاص من عسف الروم وجبروتهم ، ولذلك لم يكن في مصر بعد الفتح مشكلات انتفاض وقلاقل ، وكان عمرو بن العاص يكرم كبراءهم ويهتم بهم كما جاء في بعض الروايات .

ولما انتهى عمرو من فتح الإسكندرية استأذن أمير المؤمنين عمر في أن يجعل منها دار الإمارة لتوفر المباني بها ، ولكن عمر أبى عليه ذلك ، وأمره أن يجعل دار الإمارة دون نهر النيل حتى لا يحول بينه وبين دار الخلافة نهر ولا بحر ، فانتقل إلى مكان إقامته حينما كان محاصراً حصن باب اليون ، وابتدأ بإنشاء مدينة الفسطاط التي سميت بذلك من فسطاط عمرو الذي تركه من أجل الحمامة التي فرخت فيه .

موقفان لأمر المؤمنين عمر :

جاء في رواية لابن عبد الحكم : وبنى عمرو بن العاص المسجد ، وكان ماحوله حدائق وأعناباً ، فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة ، وإن عمراً وأصحاب رسول الله ﷺ وضعوها ، واتخذ فيه منبراً .

فكتب إليه عمر بن الخطاب : أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين ، أو ما بحسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبك ، فعزمت عليك لما كسرتة (١) .

هذا ولعل المنبر الذي صنع لعمرو كان عالياً ، فلفت نظر عمر حينما بلغه ذلك فخشى أن يداخل من صعدته شيء من الكبر ، أو يقع في قلوب بعض المستمعين شيء من اتهامه بذلك ، وإلا فإن المنبر قد صنع لرسول الله ﷺ ، ولكن لم يكن عاليًا ، إذ كان ثلاث درجات فقط .

وفي هذا دلالة على اهتمام عمر رضي الله عنه بمشاعر المسلمين وحقوقهم ، وهذا مثل من أمثلة محاولاته الدائمة لإزالة الفجوات والفوارق بين الحكام والمحكومين ، لئلا يطغى حاكم فينخدع بمظاهر التعظيم والرفعة ، فيحتجب عنه أهل العقول الكبيرة والإيمان القوي ، ويحاول التقرب إليه والهيمنة عليه أصحاب العقول الصغيرة والإيمان الضعيف ، ولئلا يضعف محكوم فينزوي عن طلب الحق والدفاع عنه .

وإذا كان عمر رضي الله عنه يأخذ ولائه بهذه الملاحظات الدقيقة

(١) فتح مصر / ٦٨ .

مع أنه يتحرى أشد التحري في اختيارهم ومع كون أغلبهم من الصحابة ، فكيف بمن هم دونهم في العقل والدين بمراحل ؟

إن الملاحظة الدائمة للعلاقة بين الحكام والرعية تعتبر من أهم دعائم قوة الدولة الإسلامية ، وسرعة انتشارها في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين .

ولقد عرفنا من هذه الملاحظات والتحريات أن مهمة الحاكم لاتنتهي باجتهاده في اختيار الولاة الأكفاء ، بل تمتدُّ إلى المتابعة وإبداء الملاحظات النافعة .

وإذا كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أخذ ولاته بذلك وحاسبهم حتى على الأمور التي لم يخطر ببالهم أثرها على الأمة ، فإنه قد أخذ نفسه بذلك قبل أن يأخذ غيره ، فحينما بعث إليه عمرو ابن العاص رضي الله عنه بقوله له : إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع ، فكتب عمر : أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر ، وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين (١) .

وهذا دليل على كمال ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وزهده في مظاهر الحياة الدنيا ، وإذا كان الكبار والزعماء هم الذين يترفعون عن أحوال الدنيا ، ومتاعها الزائل ، فإن من دونهم من باب أولى أن يترفعوا عن ذلك .

* * *

(١) فتوح مصر / ٦٩ .

مواقف وعبر

في خلافة

عثمان بن عفان رضي الله عنه

- استشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما -

أخرج أبو زيد عمر بن شبة النميري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن عمر كان دخل بأبي لؤلؤة البيت ليصلح ضبة له ، وكان نجاراً نقاشاً يصنع الأرحاء ، فقال أبو لؤلؤة : مرُ سيدي المغيرة بن شعبة يضع عني خراجي . فقال : إنك لتكسب كسباً كبيراً فاصبر واتق الله ، هل أنت صانع لي رَحَى ؟ قال : نعم والله لأصنعن لك رَحَى تتحدث بها العرب . فقال عمر رضي الله عنه : أوعدني الخبيث ، وخرج إلينا فقال لو قتلت أحداً بسوء الظن لقتلت هذا العليج ، إنه نظر إليّ نظرة لم أشك أنه أراد قتلي فَقَلَّ مامكث حتى طعنه (١) .

في هذا الخبر بيان للسبب الظاهري لإقدام أبي لؤلؤة المجوسي على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

وفيه مثل من ورع عمر الشديد حيث لم يقتل ذلك الرجل الذي توعده مع أنه كافر ، بل إنه لم يسجنه ولم يخرجه من المدينة ، وفيه أيضاً دلالة على قوة توكل عمر وإيمانه بقضاء الله تعالى وقدره وأن جميع الأمور بيد الله سبحانه .

وأخرج الإمام البخاري خبر استشهاده من حديث عمرو بن ميمون قال في سياق حديثه : إني لقائم ما بيني وبينه أحد - يعني عمر في صلاة الفجر - غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفيين قال : استووا حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف أو

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣/ ٨٩٣ .

النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فماهو إلا أن كبرَ فسمعتة يقول : قتلني - أو أكلني الكلب وذلك حين طعنه ، فطار العليج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى ، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس انظر من قتلني ، فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، قال : الصنع ؟ - يعني الذي يصنع بيديه - قال : نعم ، قال : قاتله الله لقد أمرت به معروفاً ، الحمد لله الذي لم يجعل ميتي بيد رجل يدعي الإسلام .

إلى أن قال : وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ ، وقَدِمَ في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، قال : وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض ، قال : ردوا عليَّ الغلام ، قال : يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقي لثوبك وأتقى لربك (١) .

وقوله « وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي » مثل لآثار الخوف من الله تعالى بتخيُّل الوقوع في شيء من التقصير في أمر المسؤولية

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٥٩/٧) .

فيود لو أن أجر الولاية قوبل بما يحتمل أن يكون وقع فيه من تقصير
فيخرج منها كفافاً لا له ولا عليه .

وإذا كان عمر يشعر بهذا الشعور وهو الذي ضُرب بعدله المثل
وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة فكيف ممن هم دونه في العدل بمراحل
ولم يظفروا بمثل هذه الشهادة من الصادق المصدوق ﷺ .

وإنه لعجب من عمر وهو في تلك الساعات العصيبة أن يبدي
النصيحة ويغيّر المنكر الذي رأى ذلك الشاب متلبساً به ، فقد وعظه في
إطالة ثوبه بأسلوب مؤثر جمع فيه بين الفائدة الدينية والدينية ، حيث
بين أن تقصير الثوب طاعة لله تعالى يسلك بها صاحبها سبيل المتقين ،
وحفظ للثوب من الفناء ، حيث إن ملامسة الثوب للأرض تدنسه
وتعجل في بلاء .

ثم قال عمر كما جاء في رواية البخاري المذكورة : يا عبد الله بن
عمر انظر ما عليّ من الدين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو
نحوه ، قال : إن وفي له مال آل عمر فأدّه من أموالهم ، وإلا فسلّ في
بني عدي بن كعب ، فإن لم تَفِ أموالهم فسل في قريش ولا تَعُدُّهم
إلى غيرهم فأدّ عني هذا المال .

وهذا مثل من ورع عمر رضي الله عنه وتقواه فهو الذي يقوم
على رأس أعظم دولة في العالم ، وقد جُبِيتْ إليه خزائن الأرض
ومغانم الفتوح العظيمة ، ومع ذلك يموت مديناً ، ويأبى أن يُسدّد دينه
من بيت مال المسلمين ، وإنما يأمر ابنه عبد الله بأدائه من مال أسرته
فإن لم يف بذلك فليعرض القضية على عشيرته ثم على قبيلته .

وإنما تورع عمر عن أداء ذلك الدين من بيت مال المسلمين لأن فيه حقا لكل مسلم فلا بد أن يأذن له في ذلك جميع المسلمين ، ومن الذي يضمن له أن جميع المسلمين راضون عن ذلك ؟ وهو لا يريد أن يفارق الدنيا وقد تحمل في ذمته شيئا من أموال المسلمين بغير رضاهم . أما قرابته وقبيلته فهو يضمن أنهم لن يبذلوا إلا عن رضى منهم فليس في الأمر شبهة .

وقد امتدت خلافته رضي الله عنه من العام الثالث عشر إلى نهاية العام الثالث والعشرين ، وكان عهده على طوله نسبيا عهد عمل وإنتاج متواصل ، سواء في المجال الحربي أو المجال العمراني ، فلقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده حتى شملت العراق وبلاد فارس والشام ومصر ، وبهذا يكون المسلمون في عهده قد ضموا مملكة الفرس بجميع أطرافها إلى دولة الإسلام ، وهي الإمبراطورية الكبرى التي كانت تسيطر على المشرق ، كما ضموا أهم أقاليم دولة الروم وهما الشام ومصر ، وذلك بعد خوض عشرات المعارك التي كان النصر فيها حليف المسلمين إلا في القليل النادر .

وفي خلال هذه السنوات العشر الحافلة بالأعمال الجليلة كان الأعداء يبذلون كل ما يستطيعون من جهد لتدمير هذه الدولة الفتية التي أخذت تتسع بشكل لم يسبق له مثيل ، فلقد وجهت الدولتان العظيمتان آنذاك كل طاقتيهما القتالية لصعد المسلمين فلم يفلحوا ، واتفقوا في عام واحد وهو العام الخامس عشر على حشد جميع مالديهم من جنود ليواجهوا المسلمين في وقت واحد ، فكانت معركة

القادسية واليرموك ، حيث شُغل المسلمون بالإعداد لمواجهة تجمع
الفرس الكبير لعدة أشهر ، ففاجأهم الروم بالحشود العظيمة السريعة
التي التقت مع المسلمين في الشام في معركة اليرموك ثم كانت
القادسية بعد ذلك .

ولقد جرت محاولات بعد ذلك من الفرس لحشد ما تبقى من
قوتهم في مواجهة شاملة مع المسلمين ، وكان آخر الحشود الضخمة
في نهاوند حيث قضى عليها المسلمون .

خبر الشورى بين أهل الحل والعقد :

إن من أهم مواقف عمر رضي الله عنه التي ختم بها حياته مقام
به من تثبتت مبدأ الشورى بين أهل الحل والعقد ، وقد جاء في الرواية
التي أخرجها الإمام البخاري من حديث عمرو بن ميمون : «فقالوا
أوص يا أمير المؤمنين ، استخلف ، فقال : ما أجد أحق بهذا الأمر من
هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم
راض ، فسمي علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن ،
وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء»^(١).

وهكذا جعل الخلافة شورى بين أفضل الأمة ديناً وهم الستة الذين
شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ولم يدخل معهم سعيد بن زيد مع
أنه سابع السبعة الذين بقوا من العشرة المبشرين بالجنة بعد أبي بكر
وعمر وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم . . لم يدخله معهم في
هذا الأمر لأنه ابن عمه وزوج أخته ، وذلك مبالغة منه في الورع

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٠٠ (٥٩/٧) .

وإبعاد صلة القرابة من أن يكون لها تأثير في اختيار الخليفة ، وهذا من كمال عدله وورعه وبُعدّه عن شرف الدنيا وجاهاها .

ولاشك أن عمر قد لاحظ في كل واحد من هؤلاء الستة الكفاءة للقيام بهذا الأمر ، لأن الأفضلية في الدين وحدها لا تكفي لحمل مسئولية الأمة .

هذا وقد أحاط عمر رضي الله عنه أمر هذه الشورى بنظام يحمي هذا الأمر من التفلت والفوضى ، فمن ذلك أنه حصر الشورى في هذا العدد المحدود ، وذلك أضمن لنجاح هذا الأمر ، بخلاف ما لو جعلت لعموم الأمة فإنه سيدخل في حق الاختيار ضعفاء الإيمان من أصحاب الهوى ، وربما دخل المنافقون ، وإذا كان الرأي للأكثرية فربما يتغلب أصحاب الدنيا على أصحاب الآخرة فيحل الفساد في الأرض .

كما أنه حصر المدة التي يتم فيها اختيار الخليفة بثلاثة أيام وذلك أحزم للأمر وأبعد من حدوث تدخل من بعض أصحاب الدنيا قد يحدث بسببه فتنة بين المسلمين .

وحيث إنه قد جعل الرأي للأغلبية من أهل الشورى فإنه أدخل معهم ابنه عبد الله ليكون مرجحاً لأحد الفريقين عند التساوي وفي حال عدم رضاهم بحكمه يكون الترجيح للفريق الذين معهم عبد الرحمن بن عوف كما جاء في رواية المدائني أن عمر قال لهم « إذا اجتمع ثلاثة على رأي وثلاثة على رأي فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم ترضوا بحكمه فقدموا من معه عبد الرحمن بن عوف » (١) .

(١) فتح الباري ٦٧/٧ .

وهذا صريح في أن إدخال عبد الله بن عمر معهم للترجيح عند تساوي الأصوات ، وإنما اختاره أمير المؤمنين عمر لهذه المهمة لما عُرِف عنه من الزهد في الدنيا والتجرد الكامل لله تعالى ، وربما لأسباب أخرى يدركها عمر ويعلم أن في وجوده مايساعد على نجاح الأمر ، كما أن ترجيح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف قد لاحظ فيه عمر ما يتصف به من الزهد في مناصب الدنيا والتجرد للآخرة .

أما أمر الشورى في اختيار الخليفة فإن الستة المذكورين اجتمعوا بعد الفراغ من دفن عمر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد جرت مواقف من الإيثار والرأي السديد تُسجَل لهؤلاء العظماء .

فمن ذلك أنهم لما اجتمعوا تحدث عبد الرحمن بن عوف فقال كما جاء في رواية الإمام البخاري السابقة : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي ، فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرا من هذا الأمر فنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه ؟ فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا ألوّ عن أفضلكم ؟ قالوا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ والقُدَم في الإسلام ماقد عملت فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه (١) .

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٦١ / ٧) .

وهذه الرواية فيها اختصار شديد حيث لم تذكر مقام به
عبدالرحمن بن عوف خلال الأيام الثلاثة ، وقد جاء في رواية أخرى
للبخاري الإشارة إلى ذلك ، وفيها قول المسور بن مخرمة : « حتى
إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان - قال المسور - طرَقني
عبد الرحمن بعد هيج من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت فقال :
أراك نائماً فوالله ما أكتحلتُ هذه الثلاث بكثير نوم » ثم أمره بدعوة
بعض أهل الشورى .

وجاء في آخر الرواية « فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك
الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار ،
وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر - فلما
اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ، ثم قال : أما بعد يا علي إني قد نظرت
في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن علي نفسك
سبيلا ، فقال - يعني لعثمان - أبايك على سنة الله تعالى وسنة
رسوله ﷺ والخليفين من بعده ، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس :
المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون (١) .

هذا وإن مقام به هؤلاء الصحابة الأربعة رضي الله عنهم من
التنازل عن الخلافة إبتغاء وجه الله تعالى يعتبر موقفاً عظيماً ، أما
تمسك عثمان وعلي رضي الله عنهما بحقهما في ذلك فهو محمول
على أن كل واحد منهما يريد القيام بهذا العمل الصالح الذي يعتبر من
أعلى الأعمال الصالحة وأشرفها حيث لا يأتي من يساوي الخليفة في
هذا العمل إذا قام بتبعاته وحذر من مغباته ، فالخليفة يعتبر هو القائد

(١) صحيح البخاري رقم ٧٢٠٧ (١٣/١٩٣) .

الأعلى لجميع المجاهدين في دولة الإسلام ، وأي فتح يتم بتوجيهه فله منه حظ ونصيب ، إضافة إلى قيامه بالعدل بين الناس وإثابة المحسن وعقوبة المسيء ، وإقرار دولة الإسلام في الأرض .

ولكن مواقف الصالحين تختلف نحو هذا الأمر كما اختلفت مواقف أصحاب الشورى هنا ، فمنهم من يغلب جانب السلامة من المآثم خشية عدم المقدرة على القيام بكل مطالب الولاية ، ومنهم من يغلب جانب الطموح نحو المعالي في الأعمال الصالحة مع رجاء التسديد والتوفيق من الله تعالى .

والذي يدفع أصحاب الصلاح غالباً إلى قبول الولاية كونهم يحملون في أفكارهم مشاريع خيرة نحو الإصلاح وإعزاز الإسلام ، ويخشون إن تولوها غيرهم لم يحقق هذه الأماني السامية .

هذا وتجدر الإشارة بشكل خاص بجهود عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فقد كان رجل الموقف حيث أشار عليهم بأن يجعلوا أمر الشورى لثلاثة منهم ، وذلك بالتنازل عن حقهم في هذا الأمر ، وفي ذلك حصر لأمر الخلافة وهو أدعى للنجاح في اختيار الخليفة .

ولما تم التنازل وكان عبد الرحمن بن عوف أحد المرشحين تنازل عنها ليقوم بعملية الاختيار ، وقد قام بها خير قيام ، حيث ظل ثلاثة أيام يأخذ آراء أهل الرأي من المسلمين ، فلما رأى أن أغلبهم يرشح عثمان عزم على أخذ البيعة له ، فبايعه أهل الشورى بغير تردد ولا امتناع ، ثم بايعه وجهاء المسلمين وعامتهم في المدينة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

— من مواقف عثمان بن عفان رضي الله عنه —

استفتح الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافته بعدة كتب ، فكتب إلى ولاية الأمصار ، وإلى قادة الجنود ، وإلى المسؤولين عن جباية الأموال ، وإلى عامة المسلمين .

كتابه إلى الولاية :

ذكر هذا الكتاب الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه قالوا : وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله :

أما بعد : فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلُقوا رعاة ، لم يخلُقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالههم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تُنَّوْا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تتبابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء (١) .

وفي هذا الكتاب أشار عثمان رضي الله عنه إلى بيان مهمة الولاية الذين يلون أمور المسلمين ، حيث بين أنهم رعاة ، ومهمة الرعاة حفظ رعاياهم والعناية بهم وبذل الجهد في صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ، وليسوا جباة لأموالهم ، بل هم مستأمنون على تلقي موارد الدولة المالية وصرفها بأمانة وعدالة .

ونبه على ماسيكون عند تغير الولاية من رعاة إلى جباة ، بأن ذلك

(١) تاريخ الطبري ٢٤٤/٤ - ٢٤٥ .

سبب في تقلص مكارم الأخلاق التي مثل لها بالحياء والأمانة والوفاء ، وذلك أن بين الراعي والرعية خيطاً سامياً من العلاقات المتينة ، يؤكده ويثبتته اتفاق الجميع على هدف واحد ، وهو ابتغاء وجه الله تعالى ، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لرعيته من رعاية وعدالة ، وأفراد الرعية يسعون لهذا الهدف بما يقدمونه لإمامهم من طاعة وولاء وأمانة ووفاء ، ويبقى خُلقُ الحياء الذي أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع في الحرج .

ثم يوصي عثمان ولاته بالعدل في الرعية ، وذلك بأخذ ما عليهم من الحقوق وبذل ما لهم من ذلك ، ويشير إلى نقطة مهمة وهي أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء ، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين أثر هذا الخلق الرفيع في تفوق المسلمين الإداري والحربي .

كتابه إلى قادة الجنود :

قال ابن جرير : قالوا : وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج (١) : أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغِبْ عنا ، بل كان على ملائنا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله ما بكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه (٢) .

(١) يعني الأقاليم .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥ .

وفي هذا الكتاب لفت نظر إلى أن الأمور لن تتغير بتغير الخليفة، لأن الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسرون على خط واحد ، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام في واقع الحياة .

وقوله « وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملا منا » إشارة إلى أن حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشورى ، وذلك يترتب عليه أن جميع القضايا المهمة تكون معلومة بتفاصيلها عند أهل الحل والعقد ، فإذا ذهب الحاكم وخلفه حاكم آخر سار على نفس المنهج لوضوح الهدف لدى الجميع .

وقوله « ولا تغيروا فيغير الله بكم » وَعَيَّ لَسَنَ اللّٰهِ تَعَالٰى فِي هٰذَا الْكُوْنِ ، فمعية الله جل وعلا لأوليائه بالتوفيق والحماية والنصر مشروطة بلزومهم شريعته واستسلامهم لأمره ، فإذا تغيروا في ذلك غَيَّرَ اللّٰهُ مَا بِهِمْ وَاسْتَبَدَّلَ بِهِمْ غَيْرَهُمْ فِي الْهَيْمَنَةِ وَالتَّمَكُّنِ ، وَفِي ذٰلِكَ يَقُوْلُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوْنَهُ مِّنْ أَمْرِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوْا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُوْنِهِ مِّنْ وَّالٍ ﴾ (١) .

كتابه إلى الجبّة :

قال الإمام ابن جرير : قالوا : وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج : أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يُسَلَّبُهَا ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء

(١) سورة الرعد / ١١ .

الوفاء ، لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم (١).

ففي هذا الكتاب تذكير بالله تعالى لتكون رقابته هي المهيمنة على النفوس ، فيلتزم من ولاهم الله أمور أموال الأمة بالحق ويستقيموا عليه ، فلا يأخذوا الأموال من مصادرها إلا بطريق حلال ، وإذا أخذوها قاموا بحفظها بأمانة حتى يؤدوها في وجوها المشروعة .

ثم يوصيهم بلزوم الأمانة ، ويذكرهم بأنهم إن سلبوها فإنهم يتحملون مغبة فقدها في الدنيا والآخرة ، ويشاركون في المأثم من تأسى بهم في ذلك .

ثم يوصيهم بالوفاء بأداء حقوق اليتامى والمعاهدين ، ويذكرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معرضون لنقمة الله تعالى ، لأنه خصم لمن ظلم هؤلاء المستضعفين .

وفي هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٢٤٥/٤ .

مواقف وعبد

فى

جهاد المسلمين فى المشرق وبلاد الروم

١ - مواقف جهادية في أذربيجان وبلاد الروم -

لقد ضاق الأعداء ذرعاً بالإطاحة بدولهم وانتقاص ممالكهم فأقدموا على التخطيط لزعزعة دولة الإسلام من داخلها، وكان أبرز مظاهر ذلك التخطيط إقدامهم على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لاعتقادهم بأنه هو المحرك الأقوى للجهاد الإسلامي، والمعلم البارز لتماسك المسلمين في ظلال دولته القوية .

وقد ظهر بعد استشهاده واستخلاف عثمان رضي الله عنه ما يؤيد ذلك ، حيث بدأت بعض الأقاليم بالانتقاص على المسلمين في بلاد الفرس ، واستعدت دولة الروم لغزو المسلمين في الشام ومصر .

ومن الأخبار في ذلك مارواه الإمام الطبري من أن أهل أذربيجان انتقضوا على المسلمين ، وأن أمير الكوفة الوليد بن عقبة سار إليهم حتى وطئهم بالجيش فلما رأوا ذلك انقادوا وطلبوا إليه أن يتم لهم على الصلح الذي كان صالحهم عليه حذيفة بن اليمان، ففعل وقبض منهم المال ، وكانوا قد حبسوا ذلك عند وفاة عمر (١) .

أما الروم فإنهم قد أجلبوا على المسلمين بجموع عظيمة، وقد كتب أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الوليد بن عقبة الوالي على الكوفة يقول له : أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إلي يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجاته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، في ثمانية آلاف أو تسعة

(١) تاريخ الطبري ٢٤٧/٤ .

آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام .
فقام الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد
أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسنا - يعني
في بلاد الفرس والمشرق - ردَّ عليهم بلادهم التي كفرت ؛ وفتح بلاداً
لم تكن افتتحت ، وردهم سالمين غانمين مأجورين ، فالحمد لله رب
العالمين ، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين
العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف ، تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم
قد جاشت عليهم الروم ، وفي ذلك الأجر العظيم المبين ، فانتدبوا
رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي ، قال : فانتدب الناس فلم
يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة ، فمضوا حتى
دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم ، وعلى جند أهل الشام حبيب
ابن مسلمة بن خالد الفهري ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة
الباهلي ، فشنتوا الغارات على أرض الروم ، فأصاب الناس ماشاؤوا من
سبي ، وملكوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصونا كثيرة (١) .

وهكذا أثبت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وولاته وقادة
جنوده البواسل أن الدولة الإسلامية مازال قوية مرهوبة الجانب ، حيث
أخضعوا أعداءهم وقضوا على القلاقل التي حدثت في المشرق ، ثم
اتجهوا نحو الروم فأوقعوا فيهم خسائر جسيمة ، واثبتوا لأعداء
الإسلام أن القضاء على قادة المسلمين لا يعني شيئاً مهماً في إضعافهم
ولو كان من توجهوا للقضاء عليه إمام المسلمين ، لأن قادة الإسلام

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٧ .

وجنوده يجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ، وليسوا مجبورين على القتال من حكامهم ، ولو كان المسلمون يتأثرون بفقد إمام أو قائد تأثراً يشل حركة جهادهم لتأثروا قبل ذلك بفقد رسول الله ﷺ .

موقفان لحبيب بن مسلمة وزوجته :

هذا ومن الروائع التي رُويت في جهاد المسلمين مع الروم ما ذكره الإمام الطبري من خبر قائد المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري ، وقد جاء في الخبر « وكان حبيب صاحب كيد ، فأجمع على أن يبيت الموريان » - يعني قائد الروم - فسمعتُ امرأته أم عبيد الله بنت يزيد الكلبيّة يذكر ذلك ، فقالت له : فأين موعدك؟ قال : سراق الموريان أو الجنة ، ثم بيّتهم فقتل من أشرف له ، وأتى السراق فوجد امرأته قد سبقتُ ، وكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سراق ، ومات عنها حبيب ، فخلف عليها الضحّاك بن قيس الفهري فهي أم ولده^(١) .

وقد عبّر حبيب عن النصر على الأعداء بالوصول إلى سراق «الموريان» باعتبار أن الوصول إلى مقر القائد يعني هزيمة الأعداء ، وقد جعل لزوجته موعداً في الدنيا إن انتصروا على الأعداء ، وهو اللقاء في مقر قيادة جيش الأعداء ، وجعل لها موعداً في الآخرة إن ظفر بالشهادة ، وهو اللقاء في الجنة .

وهذا دليل واضح على أن من صفات الجليل الأول أنهم يجعلون هدفهم إحدى الحسينين : إما النصر على الأعداء ، أو الظفر بالشهادة .

(١) تاريخ الطبري ٢٤٨/٤ .

وما قام به حبيب بن مسلمة دليل على براعته في التخطيط ، حيث فاجأ الأعداء بذلك الهجوم الليلي المباغت ، وهو مثل على تفوق المسلمين الحربي ، ولم يكن الأعداء على مستوى المسلمين في الحذر والرصد الحربي ، فلذلك وقع الروم في الفشل وانهزموا .

أما امرأة حبيب فإنها كانت مثالا للمرأة المؤمنة الشاعرة بمسئوليتها أمام زوجها وأمام واجبها نحو أمتها ، فقد كانت مشاركة لزوجها في مشاعره وأفكاره وتخطيطه في أهم عمل يقوم به في حياته ، وهو جهاد الأعداء .

ولاشك أن سؤالها عن موعد اللقاء ، وجواب حبيب لها يدل على مشاركة سابقة في تصور طموحاته ومراحل عمله .

وإذا كانت المرأة ذات كفاءة ، وشاركت زوجها في المشورة والتشجيع والمؤازرة فإن إنتاج زوجها يكون مضاعفًا لأنه سيعيش في نطاق عمله ليل نهار .

وإذا كانت المرأة وهي التي تتصف عادة باللين وإيثار السلامة والبعد عن المخاطر . . إذا كانت هي التي تدفع بزوجها - كهذه المرأة - إلى اقتحام الأهوال والدخول في المغامرات ، فإنها امرأة عظيمة حقًا ، ولاشك أن زوجها سيكون مندفعًا لذلك بطاقته المعتادة مضافًا إليها ماناله من تأييد وتشجيع من الجانب الذي يُنتظر منه ضد ذلك .

ولقد كانت هذه المرأة عظيمة أيضًا حينما لم تكف بتشجيع زوجها ودفعه إلى بذل كل ما يملك من جهد في قتال الأعداء ، بل غامرت بنفسها حتى سبقت زوجها إلى سرادق قائد الروم .

٢ - فتح بعض بلاد خراسان -

استمرت الفتوحات في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد ولَّى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز القرشي .
وقد سار ابن عامر سنة إحدى وثلاثين إلى خراسان ففتح أبرشهر وطوس وبيورد ونسا ، حتى بلغ سرخس ، وصالح فيها أهل مرو .
ذكر ذلك الإمام الطبري (١) .

ثم ذكر رواية عن السكن بن قتادة العريني أن أهل خراسان جمعوا أربعين ألفاً بقيادة « قارن » فسار إليهم عبد الله بن خازم وليس معه إلا أربعة آلاف ، وأمر الناس فحملوا الودك من سمن أو دهن أو زيت أو إهالة [وهي الودك المذاب] ، ثم سار حتى إذا أمسى قدم مقدمته ستمائة ، ثم اتبعهم ، وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح ، وجعل يقتبس بعضهم من بعض ، وانتهت مقدمته إلى عسكر قارن ، فأتوهم نصف الليل ، ولهم حرس فناوشوهم ، وهاج الناس على دَهِش ، وكانوا آمنين في أنفسهم من البيات ودنا ابن خازم منهم ، فرأوا النيران يمنة ويسرة ، وتتقدم وتتأخر ، وتنخفض وترتفع ، فلأبشروا أحداً ، فهاجمهم ذلك ، ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ، ثم غشيهم ابن خازم بالمسلمين ، فقتل قارن ، وانهزم العدو فاتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا ، وأصابوا سبياً كثيراً (٢) .

وهكذا يتحفنا قادة المسلمون الأوائل بالخطط الحربية المتنوعة ، مما

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٣٠٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ / ٣١٤ - ٣١٥ .

يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا الجهاد من أجل نصره الإسلام قضيتهم الكبرى ، يعيشون من أجلها ، ويموتون في سبيلها ، فآلهمهم الله تعالى الخطط الملائمة للمقام .

ومما يلاحظ أن هذه الخطط النادرة لا تتوفر للمسلمين إلا إذا كانوا في ضائقة من أمرهم ، فيلهمهم الله تعالى إياها إنقاذاً لهم ، وإعزازاً لهذا الدين .

ولهذا فإننا نراهم يُقدمون ويتوغلون في بلاد الأعاجم مع قلة العدد وضآلة العدد ، متوكلين على الله جل وعلا ذاكرين معيته لأوليائه بالنصر والتأييد ، مع بذل الجهد في الأخذ بالأسباب التي جعلها الله تعالى موصلة إلى غاياتها .

* * *

٣ - معركة في طخارستان -

أخرج الإمام الطبري عن مقاتل بن حيان قال: صالَح ابن عامر^(١) أهل مرو وبعث الأحنف^(٢) في أربعة آلاف إلى طخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرورُور ، وجمع له أهل طخارستان وأهل الجوزجان والطارقان والفارياب فكانوا ثلاثة رحوف ، ثلاثين ألفاً ، وأتى الأحنف خبرهم وماجمعوا له فاستشار الناس فاختلفوا ، فبين قائل : نرجع إلى مرو ، وقائل : نرجع إلى أبرشهر وقائل : نقيم نستمد ، وقائل : نلقاهم فنناجزهم قال : فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر ، ويستمع حديث الناس ، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة أو يعجن ، [والخبزيرة طعام يشبه العصيدة] وهم يتحدثون ويذكرون العدو ، فقال بعضهم ، الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح حتى يلقي القوم حيث لقيهم فإنه أرعب لهم فيناجزهم ، فقال صاحب الخزيرة أو العجين : إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم ، أنأمرونه أن يلقي حدَّ العدو مُصحراً في بلادهم ، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل ، فإن جالوا جولة اصطلمونا ! ولكن الرأي له أن ينزل بين المرغاب^(٣) والجبل ، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره ، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه .

فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال ، فضرب عسكره وأقام ، فأرسل

(١) هو والي البصرة عبد الله بن عامر القرشي .

(٢) هو الأحنف بن قيس التميمي .

(٣) المرغاب نهر بمرو الروذ كما ذكر البلاذري في فتوح البلدان .

إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه، فقال: إني أكره أن أستنصر
بالمشركين فأقيموا على ما أعطيناكم وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرونا
فنحن على ما جعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم.
قال: فوافق المسلمون صلاة العصر، فعاجلهم المشركون
فناهضوهم فقاتلوهم، وصبر الفريقان حتى أمسوا.

ثم ذكر في رواية أخرى أنهم استمروا في القتال ليلاً حتى ذهب
عامة الليل، ثم هزمهم الله (١).

في هذا الخبر نجد الأحنف بن قيس مع ما اشتهر به من الرأي
وحصافة التفكير يجمع أهل الرأي فيستشيرهم، وهو بذلك يطبق
حكماً شرعياً قد أمر الله تعالى به نبيه ﷺ مع أنه معصوم حيث يقول
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ
حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٢) فمن باب أولى أن يكون هذا
الحكم سارياً على قادة المسلمين وولاتهم.

ومع ذلك نجد الأحنف لا يكتفي بتلك الشورى بل يقوم من الليل
ويدور على خيام الجند علّه يسمع رأياً جديداً مفيداً يأخذ به، فقد
دلّته التجارب على أن بعض العامة يُلهمهم الله آراء سديدة، وهذه
الآراء تظهر غالباً عند التحوار وتبادل الرأي، وقد يوصلون الرأي
المختار لقائدهم وقد لا يفعلون ذلك.

(١) تاريخ الطبري ٣١١/٤ - ٣١٢، فتوح البلدان / ٥٧٢.

(٢) ال عمران / ١٥٩.

ونجد الأحنف وهو القائد المحنك لا ينتظر احتمال وصول هذه الآراء إليه وهو في مركز القيادة بل يحمل نفسه على التجول ليلاً علّه يسمع رأياً مفيداً يحل مشكلة المسلمين .

والخطة الحربية التي استفدناها من هذا الخبر هي أن الجيش إذا كان عدده قليلاً وعدد عدوه كثيراً عليه أن يلجأ إلى مكان محصور بحيث لا يأتيه العدو إلا من جهة واحدة والمختار أن يكون المكان غير واسع بحيث لا يصل إلى الجيش إلا القدر المناسب لعدده .

وهكذا فعل الأحنف فأخذ بهذه الخطة فنجح وانتصر على أعدائه في تلك المعركة .

هذا وقد بعث الأحنف بن قيس طائفة من الفرسان بقيادة الأقرع ابن حابس إلى الجوزجان، إلى بقية كانت بقيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم ، فجال المسلمون جولة، فقتل فرسان من فرسانهم فقال كثير النهشلي :

سقى مَزْنُ السحاب إذا استهلَّتْ

مصارع فتية بالجُورجان

إلى القصرين من رُستاق خُوطٍ

أقادهمُ هناك الأقرعان (١)

ونحن مع كثير النهشلي فنقول : كم ضُمَّتْ الأرض في مشارقها ومغاربها من شهداء المسلمين الذين عبَّقت الأرض بروائحهم الزكية،

(١) تاريخ الطبري ٣١٢/٤ .

وأصبحوا شاهداً حيّاً على مدار التاريخ على عظمة المسلمين ،
واستعدادهم العالي للتضحية بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعزاز
دينهم .

إن الدولة الإسلامية التي حكمت أكثر بلاد العالم عدة قرون إنما
بُنيت ونَمَتْ على دماء أولئك الشهداء الأبرار ، وما أنتجته عقول
أولئك القادة الأخيار .

* * *

مواقف وعبد
فى
جهاد المسلمين فى المغرب

١ - فتح مدينة سببلة في أفريقية -

ذكر ابن الأثير أن عثمان بن عفان رضي الله عنه وُلِّيَ على مصر وماوراءها من أفريقية عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

ثم إن عبد الله بن سعد لما وُلِّيَ أرسل إلى عثمان في غزو أفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها ، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك ، فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عباس وغيره ، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أفريقية ، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب فغنموا ممن عندها من الروم ، وسار نحو أفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير ومُلْكُه من طرابلس إلى طنجة .

وكان هرقل ملك الروم قد ولاه أفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سببلة يوم ليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما .

وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مُجَدًّا ووصل إليهم وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقليل قد أتاهم عسكر ففت ذلك في عضده ، ورأى عبد الله بن الزبير

قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أُذِّنَ بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم يرَ ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقليل إنه سمع منادي جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف، فحضر عنده وقال له : تأمر منادياً ينادي من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

موقف لعبد الله بن الزبير :

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد : إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله مااتفقوا عليه وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم وحيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً فلما أُذِّنَ بالظهر همَّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تَعَبًا ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا

بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهـ المسلمون ، وقُتل جرجير قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقُتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سبية .

ونازل عبد الله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار ، ولما فتح عبد الله مدينة سييطة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكرا إلى حصن الأجم ، وقد احتسى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحـ بالأمان فصالحه أهل أفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح أفريقية (١) .

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما موقفاً عظيماً في البطولة والشجاعة وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال : لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً أفريقية ، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وفي جيشه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف ، وقيل في مائتي ألف ، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالةً ، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه .

قال عبد الله بن الزبير : فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون ، وجاريتان تظلاله بريش الطواويس

(١) الكامل لابن الأثير ٤٥/٣ - ٤٦ .

فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان قال: فأمر بهم فَحَمَوْا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أنني في رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس مني الشر، ففرَّ على بردونه فلحقته فطعنته برمحي، وذففت - يعني أجهزت - عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فَرَّقُوا وفَرُّوا كَفَرَارِ القُطَا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً عظيمة، وسبيًا عظيمًا، وذلك ببلد يقال له « سبيطله » - على يومين من القيروان - .

قال : فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين (١) .

هذا وإن مقام به عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما يعتبر في غاية الشجاعة والجرأة، حيث اخترق صفوف الأعداء ثم انتزع ملكهم من بين أيديهم فقتله وهم يشاهدون مشدوهين وقد ملأ الرعب قلوبهم .

ولقد كان مقام به ابن الزبير نوعًا من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال، بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعًا وعشرين سنة، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك ؟

(١) البداية والنهاية ١٥٨/٧ .

إن الاحتمالات التي يمكن أن تَرد في مثل هذه المغامرة أن يدور في حَلَد المغامر أمران :

١ - أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر ، ويتفرق جنده كما هي عادة الكفار ، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين ، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوَّف منها المسلمون .

٢ - أن يتقبله الله شهيداً ، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأمانى ، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها ، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير ، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك ، إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في أتون المعركة الملتهب .

إنه لا يُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ، فيتخيّلون أنهم يَشُبون إليها .

ولقد كان ابن الزبير وهو يَثب تلك الوثبة متجرّداً من علائق الدنيا وأثقالها المشبّطة طامحاً بتصوراته إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة .

وليس غريباً من ابن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ذلك الإقدام النادر فإن الشبل من ذاك الأسد ، ولقد سبق لنا عرض شيء من مغامرات أبيه العظيمة ، ومنها هجومه على الأعداء وحده من فوق حصن باب اليون في فتوح مصر ، واختراقه صفوف الروم يوم اليرموك وحده ذهاباً وإياباً .

وقد جاء في هذا الخبر أن البربر بعدما قُتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطا ، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة ، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين ، وأنه يقيض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد ، وينقذهم من المآزق ، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر ، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب ، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه ، كما جاء في قول الراوي « فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه » فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال ، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها .

ولانسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره ، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة ، ولئن لم يذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقي مخلدًا في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها ، وفي الآخرة بما ينتظرون من جزاء الإحسان بالإحسان .

أما ما جاء مما ظاهره الاختلاف بين رواية ابن الأثير ورواية ابن كثير فهو محمول على أن كل واحد منهما نقل مشهدا أو مشاهد من المعركة ، فابن الأثير حاول استقصاء وصف المعركة من أولها وابتدئ كثير اكتفى بعرض موقف عبد الله بن الزبير لما فيه من الأهمية ، وهجوم ابن الزبير محمول على أنه تقدم بالجيش الاحتياطي ، ثم انفرد بطائفة يحمون ظهره لما أبصر ملك أفريقيا .

٢ - حروب المسلمين البحرية -

كان المسلمون متفوقين على الروم في الحروب البرية فاغتنم الروم مقدرتهم في المجال البحري حيث يمتلكون عددًا كبيراً من السفن، ولديهم بحارة متدربون، ولهم خبرة طويلة في مجال الحروب البحرية.. اغتنموا ذلك في الإغارة على سواحل المسلمين في الشام ومصر .

وقد كان معاوية رضي الله عنه أميراً على بعض الشام فاستأذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حمل المسلمين في البحر لمقاومة هجمات الروم، وللاستيلاء على الجزر القريبة من بلاد المسلمين كجزيرة قبرص، ليأمن المسلمون من استخدامها معاقل للروم ينطلقون منها لغزو المسلمين .

وقد أخرج الإمام الطبري في ذلك من طريق سيف بن عمر عن جنادة بن أمية الأزدي قال : كان معاوية كتب إلى عمر كتاباً في غزو البحر يرغبه فيه ، ويقول : يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص، فاتَّهمه عمرُ لأنه المشير ، فكتب إلى عمرو - يعني ابن العاص - : أنْ صِفْ لي البحر ، ثم اكتب إليَّ بخبره، فكتب إليه : يا أمير المؤمنين إني رأيت خَلْقًا عَظِيمًا، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء ، وإنما هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا بَرَقَ (١) .

(١) يعني دهش ، والمقصود أن راكبي البحر لا يكادون يصدقون أنهم نجوا من دهشتهم .

فكتب عمر إلى معاوية كما جاء في رواية أخرى للطبري : لا
والذي بعث محمدًا بالحق لأحمل فيه مسلمًا أبدًا (١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٢٥٩/٤ .

٣ - فتح جزيرة قبرص -

تقدم لنا أن أمير الشام معاوية بن أبي سفيان استأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الغزو البحري، وفتح جزيرة قبرص، فأبى عليه خوفاً على المسلمين من مخاطر ركوب البحر .

فلما استُخلف أمير المؤمنين عثمان بن عفان أعاد الكرة معاوية فاستأذنه في الغزو البحري، فتردد في ذلك ثم أذن له وقال: لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل وسار بالمسلمين من الشام ، وسار عبد الله بن سعد بن أبي السرح من مصر حتى لقوا معاوية فكان معاوية على قيادة ذلك الجيش .

وقد ساروا حتى وصلوا إلى جزيرة قبرص بسلام ونزلوا من مراكبهم، فأرسل ملك قبرص يطلب الصلح فصالحه معاوية على جزية قدرها سبعة آلاف دينار (١) وذلك معلوم أنه بعد أن دعاهم إلى الدخول في الإسلام فأبوا ذلك .

وقد شارك في تلك الغزوة عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان رضي الله عنهما، وتحقق فيها معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر بذلك ، كما أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على ابنة ملحان فاتكأ عندها ثم ضحك ، فقالت : لم تضحك يا رسول الله ؟ فقال : ناس من أمتي يركبون البحر الأخضر في سبيل الله مثلهم مثل الملوك

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٦٠ - ٢٦٢ .

على الأسرة فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعلها منهم، ثم عاد فضحك، فقالت له مثل - أو مم - ذلك، فقال لها مثل ذلك، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين ولست من الآخرين، قال أنس: فتزوجت عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة^(١) فلما قفلت ركبت دابتها فوقصت بها فسقطت فماتت (٢).

وفي هذا الحديث بشارة خير لأولئك المجاهدين الذين ركبوا البحر للجهاد في سبيل الله تعالى، حيث ظهر فرحُه وسروره من جهادهم ووصفهم بوصف يُشعر بعزتهم وقوتهم.

وقد جاء في سياق أحداث هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثم قال: مأهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوَاهم، فلما تركوا أمر الله عز وجل وعصوه صاروا إلى ما ترى.

هذا وإن ماتفوه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة والفقه في أمر الله تعالى، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم فلم ينقادوا لدعوة الحق فباؤوا بهذا المصير المؤلم حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة، لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبر على الخضوع لدعوة الحق ولو أنهم عقلوا

(١) يعني فاختة بنت قرظة زوجة معاوية.

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٨٧٧، صحيح مسلم ٥٧/١٣.

وتدبروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم وعمران ديارهم والظفر بحماية دولة الإسلام .

إن هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهر من مظاهر الرحمة والعطف تفتحت عنه نفسه الزكية ، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدر من عيني هذا الرجل العظيم ، لتعبر عما يجول في نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لها البقاء على الضلال والمآل السيء بزوال الملك والوقوع في الذل والهوان .

وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرد وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا ؟

هذا ومن المواقف العالية في هذا الفتح ما قام به معاوية بن أبي سفيان من اهتمام بالغ بالجهاد في سبيل الله تعالى ، وبدقة إدراكه الحربي حيث علم أن السيطرة على البرّ وحده لا تكفي لأن خطر الروم على المسلمين سيبقى ماثلاً دائماً من جهة البحر ، وبسبب ذلك تتعرض المدن الساحلية لغارات متكررة من قبل الأعداء .

ولقد كان له شرف قيادة أول حملة بحرية ، وهي التي شبهها رسول الله ﷺ بالملك على الأسرة ، وهذا إشارة إلى مآل إليه أمر الأمة الإسلامية من العزة والتمكين في الأرض .

وعاد المسلمون من قبرص بعدما خلّفوا وراءهم تلك الصحابة

الجليلة التي كانت موضع تقدير النبي ﷺ واهتمامه ، وأصبح الناس
يمرون على قبر أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ويقولون : هذا
قبر المرأة الصالحة (١) .

ولقد كان فتح جزيرة قبرص في غاية الأهمية لأنه كان بداية هيمنة
المسلمين على البحر الأبيض المتوسط .

* * *

(١) حلية الأولياء ٦٢/٢ ، البداية والنهاية ١٥٩/٧ .

٤ - غزوات ابن قيس البحرية -

مازال معاوية رضي الله عنه مهتماً بالغزو البحري ، وذلك لتثبيت هيمنة الدولة الإسلامية وحمايتها من هجمات الروم ، فاختار لهذه المهمة قائداً فذاً جمع بين الشجاعة والخبرة ، وهو عبد الله بن قيس الجاسي .

وقد جاء خبره في رواية للإمام الطبري من حديث خالد بن معدان وفيه « واستعمل - يعني معاوية - على البحر عبدالله بن قيس الجاسي حليف بن فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر ، ولم يغرق فيه أحد ولم يُنكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وأن لا يبتليه بمصائب أحد منهم ، ففعل^(١) - يعني استجاب الله دعوته - .

ولنا وقفة مع ما قام به عبد الله بن قيس من اهتمامه بتهيئة الأسباب اللازمة للنجاح مع توكله العظيم على الله تعالى ودعائه المذكور بأن يعافيه في جنده ، وقد مرّت علينا أخبار رأينا أن القائد فيها يسأل الله تعالى أن يرزقه الشهادة ، ولقد كان الدعاء بالسلامة في تلك المعارك البحرية أولى من طلب الشهادة لأن عبد الله بن قيس كان رائد تلك المعارك ، وقد كان المسلمون يتخوفون ركوب البحر والقتال فيه لما يشتمل عليه من مخاطر ، فكانت سلامة تلك الحملات البحرية أمراً منظوراً إليه لإزاحة الشعور بالخوف من الحروب البحرية .

وقد سلّم الله تعالى ابن قيس في خمسين غزوة بث فيها الرعب

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٦٠ .

في قلوب الروم حتى تبين لهم أنهم لم يعودوا سادة البحر ، وأن المسلمين قد تفوقوا عليهم في غزو البحر كما تفوقوا عليهم سابقاً في غزو البر .

أما نهاية هذا القائد المحنك فقد جاء في الرواية المذكورة « حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعةً فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سؤال يعترُونَ بذلك المكان - يعني مساكن يسألون - فتصدق عليهم .

فرجعت امرأة من السؤال إلى قريتها فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ، قالوا أي عدوة الله! ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد، فثاروا إليه فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه.

فجاؤوا حتى أرسوا بالمرفأ، والخليفة عليهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ماهكذا كان يقول حين يقاتل فقال سفيان: وكيف كان يقول: قالت: «الغمرات ثم ينجلينا» قال: فترك ماكان يقول ولزم «الغمرات ثم ينجلينا» وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي.

وقيل لتلك المرأة بعد: بأي شيء عرفتيه؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك، ولم يقبض قبض التجار، وفي رواية قالت:

كان كالتاجر ، فلما سأله أعطاني كالمالك فعرفت أنه عبد الله بن قيس^(١).

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمين بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو في وضع لا يضر سمعة المسلمين البحرية ، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء ، فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد ، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين ، ولكنه يعطي عطاء الملوك ، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين الذي دوخ المحاربين في تلك البلاد .

وهكذا كانت سماحة ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره ومعرفة مركزه ، ليقضي الله تعالى أمراً كان مفعولاً ، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة .

وهكذا يضرب قادة المسلمين المثل العليا بأنفسهم لستم الإنجازات الكبرى على أيديهم ، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم ، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ولم يكل الأمر إلى جنوده ، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء والهلاك على أيديهم ، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولّى هذه المهمة ، ثم نجده يتخلّق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعفتهم فيمد إليهم يد الحنان والعطف ، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعز ما يملك الناس . ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً ، لامعناً ولا مستكبراً ،

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١ ، الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٩ .

وإذا إدلهمت الخطوب تفاعل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم ، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل ، ويعجل بالخلل والفوضى .

أما خليفته سفيان الأزدي فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة ولكن مما يُحفظ له أنه لما نبّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسّي به في ذلك ، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة الحق وإن صدرت من جارية مغمورة .

وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس . . هذا الخلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأول ، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة ، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة .

فلله در أبناء ذلك الجيل : ماأبلغ ذكرهم ، وماأبعد غورهم ، وماأعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين ، وماأعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين !!

* * *

٥ - غزوة ذات الصواري -

إن من أهم المعارك البحرية التي خاضها المسلمون معركة « ذات الصواري » وذلك في أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

وقد ذكر الإمام الطبري عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن أهل الشام خرجوا ، وعليهم معاوية بن أبي سفيان ، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وخرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقية ، فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب ، فالتقوا هم وعبد الله بن سعد ، فأمن بعضهم بعضا حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك ، بين صواريها (١) .

قال مالك بن أوس بن الحدثان : كنت معهم ، فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب مارأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا ، فأرسينا ساعة ، وأرسوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا . فقلنا : الأمنُ بيننا وبينكم ، قالوا : ذلك لنا ولكم ، ثم قلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر ، فنخروا نخرة واحدة ، وقالوا : الماء ، فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضها بعضاً على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال ، ووثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجهون

(١) جمع صار ، وهو الخشبة المعترضة وسط السفينة ، وبذلك سميت المعركة ذات الصواري .

بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما .

وجاء في رواية حنش بن عبد الله الصنعاني أن عبد الله بن سعد قال: اشيروا عليّ ، قالوا : ننظر الليلة ، فباتوا - يعني الروم- يضربون بالنواقيس ، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله تعالى .

وجاء في رواية ابن أعثم الكوفي أن العدو باتوا ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطناير ويشربون الخمر، وينفخون في الصفارات، وأن المسلمين جعلوا يكثرون من قراءة القرآن، ولا يفترون عن الصلاة والدعاء (١).

وفي سياق رواية حنش الصنعاني عند الطبري قال : ثم أصبحوا وقد أجمع قسطنطين على أن يقاتل، فقرّبوا سفنهم، وقرب المسلمون، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر .

قال : ووُتِبَت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها، فكانوا يقاتلون على غير صفوف ، قال: فاقتتلوا قتالا شديداً، ثم إن الله تعالى تصر المؤمنين ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد (٢) .

وهكذا تم نجاح المسلمين في الغزو البحري بانتصارهم في هذه المعركة الكبيرة، فأصبحوا سادة البحر كما كانوا سادة البر، وفقد الروم أملاً من آمالهم في التفوق العسكري البحري .

(١) الفتوح لابن أعثم ١/ ٣٥٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٠ - ٢٩٢ .

لقد فضّل الروم القتال في البحر حينما خيّرهم المسلمون ، لأنهم قد ذاقوا الأمرين من قتال المسلمين في البر ، وجربوا معهم كل مافي وسعهم من الحيل والاستعداد فلم ينجحوا معهم في ذلك ، وكان مصير جميع حروبهم الفشل ، فلجئوا إلى القتال في البحر لخبرتهم الطويلة فيه ، وقلة تجربة المسلمين وضعف استعدادهم ، فغلب على ظنهم الظفر بالمسلمين في تلك المعركة الكبرى التي بالغوا في الاستعداد لها .

وقد جاء في هذا الخبر بيان أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين وإخفاق عدوهم ، حيث بات الروم ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطناوير ويشربون الخمر ، وينفخون في الصفارات ، بينما بات المسلمون مصليين ، لايفترون عن الدعاء وتلاوة القرآن ، وفرق كبير بين معسكر يبيت على اللهو والمجون ، ومعسكر يبيت على الجد والحزم والترقب .

وفرّق بين معسكر مقطوع الصلة بالسماء ، يستمد وجوده وبقاءه من قوى الأرض الضعيفة الهزيلة ، ومعسكر قد اعتصم بحبل الله المتين ، فأنظاره ليست مقصورة على الأرض بل هي متجهة أولاً وأخيراً إلى السماء .

فرّق بين معسكر يرى أن قوته محصورة في إمكاناته المادية الماثلة أمامه ، ومعسكر يعتقد اعتقاداً جازماً بأن قوة عظمى تهيمن عليه وعلى أعدائه هي قوة الباري جل وعلا ، وأن الله تعالى قد وعد عباده الصادقين بالنصر ، وأن ذلك قد تأكد لهم بما شاهدوا من خروجهم من المآزق ونجاتهم من المهالك بما يشبه الخوارق .

وأخيراً فَرَّقُ بين من يقاتل وقصارى همّة مستقبله ومستقبل دولته
الديني ، ومن يقاتل وطموحاته تسمو إلى المستقبل الأخروي . . إن
الأول يقاتل ليستبقى نفسه قبل كل شيء حتى يتمتع بثمرات النصر في
هذه الحياة الدنيا ، التي ربط بها مستقبله وآماله ، أما الثاني فإنه يقاتل
وفي ذهنه سلوكُ أمثل الطرق وأقربها لتأمين الدرجات العُلى في
مستقبله الأخروي ، وهذا الشعور يجعله يستमित في جهاده ، والمنطق
العقلي يقتضي أن مثل هذا لا يُقتل حتى يفتك بأعدائه الذين يحبون
الحياة كما يحب هو الموت .

ومع ملاحظة هذه الفوارق فإن أمر انتصار المسلمين يبدو واضحاً
له مسوغاته القوية التي تشحن المجاهدين بقوة عارمة لا يقف أمامها
شيء مهما كانت الفوارق المادية ، مادام المجاهدون ملتزمين بحبل الله
المتين .

ولقد كانت هذه المعركة مظهراً من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة
الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق في العدد والعدد ، فلقد كان
الروم هم أهل البحر منذ القدم ، وقد مروا بتجارب طويلة في
الحروب البحرية ، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر
والقتال البحري ، ولكن الله تعالى أдал المسلمين عليهم برغم التفوق
المذكور لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته
في الأرض .

وإن مما يُشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن
أبي سرح ورباطة جأشه ، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب .

وهي بعد ذلك لون من ألوان بسالة المسلمين واستقتالهم في
الحروب بأنفسهم في سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم .

* * *

٦ - غزو جزيرة صقلية -

قال المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي ثم تهياً المسلمون لغزو صقلية وكانت عظمة الشأن ، قال : وإنما كان ملك الروم في ثلاثة مواضع من الأرض في صقلية ورومية وقسطنطينية ، قال : وكان ملك قسطنطينية في قديم الدهر إلى يومنا هذا يلبس خفين أحمرين ، ويأذن لصاحب صقلية في أن يلبس فرداً أحمر وفرداً أصفر ، ويأذن لصاحب رومية أن يلبس فرداً أحمر وفرداً أخضر ، ويأذن لسائر البطارقة أن يلبسوا أخفافاً سوداً . قال : وكانت جزيرة صقلية هذه جزيرة واسعة خصيبة مسيرة ثلاثة أيام في مثل ذلك ، فيها عيون غدقة وزروع وأشجار وخير كثير ، فعزم معاوية على غزوها وكتب إلى عثمان في ذلك قال : وبلغ أهل إفريقية فبعثوا إلى أهل صقلية بأن العرب قد أجمعوا على حربكم فكونوا من ذلك على حذر .

قال : واتصل هذا الخبر بصاحب صقلية فغضب لذلك وقال : حوطعت العرب في غزونا لعلهم يظنون أننا كأهل إفريقية ، ولا يرضى العرب منا أن نمسك عنهم ولا نغزوهم .

قال : وخطف المسلمون من ساحل البحر في ثلاثمائة مركب فلم يشعر أهل صقلية إلا ومراكب المسلمين قد طلعت عليهم ، فنظروا إليها . قال : وبلغ ذلك ملك صقلية ، فأشرف من قصره ومعه جماعة من بطارقته ، فنظر إلى مراكب المسلمين قد أقبلت وعليها الرايات والمطارف والأعلام ، وفيها الرجال بالسلاح الشاك الذي لم ير مثله ، قال : فنظر ملك صقلية إلى مراكب كثيرة وإلى سلاح شاك لم يكن يظن أنه يكون عند العرب مثله .

قال : وكان صاحب قيسارية لما هرب من أيدي المسلمين صار إلى صاحب صقلية ، وكان عنده من ناحية ، فكان يحدث صاحب صقلية عن العرب ومافتحت من أرض الشام ومن مدن سواحلها . فلما كان ذلك اليوم ، التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية فقال له : إن هؤلاء أكثر من أولئك الذين كانوا بأرض الشام ؟ فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! كانوا أكثر من هؤلاء ، وكانوا أيضاً قومًا صالحين أصحاب نيات وبصائر ، يقاتلون على نية ودين وحسن يقين ، وهؤلاء أظن أنهم يريدون الدنيا ، فلو أن الملك أعطاهم شيئاً يدفع به عن بلده لكان ذلك عندي له الرأي ، قال : فغضب ملك صقلية من ذلك ثم قال له : أنت رجل مرعوب لأنك قد رأيت منهم بقيسارية ماقد رأيت من ظهورهم على بر الشام وبحرها ، وإن في صقلية اليوم من الرجال الذين يحملون السلاح مثل ما في الشام في برها وبحرها ، ومثل ما في أرض مصر ، وإني لأعرضهم على مائة عارض فيمكثون سنة يعترضون .

قال : فقال له صاحب قيسارية : صدقت أيها الملك ! ولذلك فارقتُ ملك الروم لما مضى إلى القسطنطينية ، وصرت إليك لما أعلم من حزمك وعزمك وكثرة خيلك ورجلك ، وإن صقلية عندي أيها الملك لتقاس إلى رومية ، قال : فسُرِّي عن صاحب صقلية وقال : صدقت أيها الملك هي كذلك ، قال : وإنما خدعه صاحب قيسارية بهذا الكلام ، لأن رومية في البر دون مدينتها أربعون ميلاً .

قال : وأرسل المسلمون مراكبهم في جزيرة صقلية ، قال : فأرسل

إليهم ملكها أن ابعثوا إلي منكم رجلاً له بيان حتى أكلمه بما أريد .

قال : فبعث المسلمون إليه برجل ومعه ترجمان يخبره بما يقول الروم فأقبل حتى وقف حذاءه وصاحب صقلية مشرف عليه ، فقال : ما أنتم ؟ فقال المسلم : من العرب الذين قد بلغت دعوتنا أطراف الأرض وأكناف الجبال وأقطار البحار ، لأن الله عز وجل بعث إلينا رسولاً هو أفضلنا بيتاً وأصدقنا حديثاً ، وأكرمنا نفساً ، فدعانا إلى الله عز وجل ، فأجبنا رسول الله وآمنا به وصدقناه ، واتبعه منا من اتبعه وأبى منا من أبى ، فقاتل من أبى عليه بالذين اتبعوه حتى أظهره الله عز وجل على العرب قاطبة ، إما راغب فيما دعاه إليه ، وإما راهب من فرق السيف ، ولقد أقر له هرقل ملك الروم من قبل بالنبوة ، وشهد له بالرسالة ولم ينكر له ذلك ، ولقد خبرنا نبينا محمداً ﷺ من قبل وفاته بأن الله تعالى يفتح علينا ويظهرنا على جميع الأديان ، وقد بلغك ما كان منا بأرض الشام لما قتلنا أهلها وسبيناهم حتى لم يلتق منهم اثنان في موضع واحد ، ونحن على مانحن عليه من الضعف وقلة المال والسلاح والكراع حتى هرب منا هرقل إلى قسطنطينية خائفاً مرعوباً ، فلم يزل كذلك حتى مات بحسرتنا ، ثم قام من بعده قسطنطين ، فقد بلغك ما نزل به منا ، وأنا قتلنا أصحابه في البحر وأخذته الرماح ، وأثخنته الجراحات ، حتى صار إليكم وشمتم به ، فهذه قصتنا وهذه حالتنا ، فلم تسألنا عن أمرنا كأنك لاتعرفنا أو كأنك جاهل بما لقيتم منا .

قال : فتبسّم صاحب صقلية ثم قال : صدقت ، نحن قتلناه ،

لأنه خرج بالروم في أيام ريح عاصفة فأهلكهم في البحر، ثم نجا وصار إلينا ، فلم نحب أن يرجع إلى أهله سالمًا حتى نُؤتم أهله منه وولده كما أيتم الروم ، قال : ثم التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية فقال : ما يخفى على العرب شيء من أمرنا ؟ فقال : نعم أيها الملك ، وكذلك لا يخفى علينا شيء من أمورهم .

قال : ثم أقبل صاحب صقلية على المسلم فقال : خبرني الآن عنكم لماذا قصدتمونا في مثل هذا البحر ؟ فقال له المسلم : قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسلام وتأمنوا على دياركم وأموالكم ، ونولّي عليكم رجلاً منكم تقيمون الصلوات الخمس وتصومون شهر رمضان ، وتحجون البيت الحرام ، وتؤخذ الصدقة من أغنيائكم فتُرد على فقرائكم ، فإن أبيتם الدخول في ديننا فاقبلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا وقرؤوا في دياركم آمين . فإن أبيتם ماعرضناه عليكم فقد أنذرناكم وأعذرنا إليك ، فاعلموا أن ما بيننا وبينكم إلا السيف ، فإن قُتلنا كنا على بيّنة من ربنا ، إنا في الجنة وأنتم في النار أو أظفرنا بكم ، فذاك ما وعدنا نبينا محمد ﷺ .

قال : فقال صاحب صقلية لترجمانه : قل له الآن عني إنك تكلمت وقلت ما أردت فذرنا حتى نتكلم بما نريد ، فقال المسلم : قل ماتشاء ، فقال : قل له عني : إنكم قد اغتررتم بأنفسكم بغزوكم إيانا في مثل هذا البحر ، وظننتم أن صقلية إنما هي كمدائن الروم التي افتتحتموها من قبل ، وليس الأمر كما تقولون ولا كما ظننتم ، إن صقلية أمتع من ذلك ، وأنتم قد ندمتم على مسيركم إلينا عندما رأيتم

من جمعنا وعددنا وكثرة سلاحنا، فلو أنكم أردتم أن ترجعوا إلى بلادكم لم تقدرُوا على ذلك ، لأنكم قد لججتم في هذا البحر حتى وصلتُم إلينا ، ولسنا نحب أن تعتادوا هذه العادة علينا في قتلكم وكثرتنا ، لأنه لم يطمع أحد من أعدائنا في هذا منا ولم يغزنا قط أحد من قبلكم إلا ذل وخضع ، وإنا لنغزو جميع أهل الأديان في ديارهم فنسبيهم ، ونذلهم ونأتي بهم إلى جزيرتنا هذه أسارى أذلة صاغرين ، وأما ما عرضتموه علينا من اتباع دينكم فهذا ما لا يكون ، ولست أفارق ديني أبداً ، وأما ما سألتموه من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا مني بالمساكنة والمسالمة أن لا أغزوكم في بلادكم .

فلما فرغ صاحب صقلية من كلامه أقبل المسلم على الترجمان فقال: قل له عني : إني أراك قد بغيت في كلامك ، والبغي منقصة وشؤم ومصرعة وحتم ، ونحن نرجو أن يدال عليكم ببغيكم ، ونحن قوم لانرى القتل سبةً ، ولا الموت عاراً ، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم .

قال : فبينما المسلم يكلم صاحب صقلية بهذا الكلام ونحوه ، وإذا بطريقٌ منهم قد أشرف من جدار القصر وقال: أيها العربي! قد أكثرت علينا من كلامك ولكن من يبارزني منكم ؟ فقال له المسلم: يبارزك أدنانا رجلاً وأضعفه في نفسه ، قال: فغضب البطريق من ذلك وقال : يا كلاب ! وفيكم من يبارزني ! ثم إنه بادر ونزل ، فخرج من باب القصر وفي يده سيف له مشطّب ودرقة مذهبة ، وعليه قباء حرير ويلمق ديباج ، قال: فبرز إليه رجل من أهل إفريقية واختلفا

بضربتين ، ضربه الأفريقي ضربة على أم رأسه فسقط البطريق قتيلاً ،
ثم وقف عليه الأفريقي فجعل يسلبه وصاحب صقلية مع بطارقته
ينظرون إليه ، ثم وقف الأفريقي ونادى بأعلى صوته : من يبارزني ؟
قال صاحب صقلية : من هذا منكم ؟ فقال له المسلم : هذا رجل من
أهل أفريقية وقد كان من خدمكم ، فمن الله عز وجل عليه بالإسلام
فأسلم ، وقد رأيتَ ما فعل بصاحبكم ، فكيف لو برز إليه رجل من
حزبنا .

قال : فنزل صاحب صقلية من قصره مغموماً ، وخرج المسلمون
من المراكب فأغاروا على أطراف صقلية ، فسبوا وغنموا ، ثم أخرجوا
مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمياً متداركاً ،
ورزق الله عز وجل المسلمين من اعتدال حجارة مجانيقهم وقصدها
لحصون الكفار وقصورهم شيئاً عجيباً ، قال : ورمت الروم بالعرادات ،
فلم يكن لعراداتهم نكاية . قال : وقهرهم المسلمون حتى أحجزوهم
في دورهم وقصورهم .

قال : فعندها خرج صاحب صقلية من قصره ، واجتمع إليه أهل
مملكته بأجمعهم فعطعوا ونفخوا في البوقات ، وأظهروا ماقدروا
عليه من آلة السلاح ، قال : وصف المسلمون صفوفهم وأظهروا
سلاحهم ، واقتحمت الروم على ميسرة المسلمين وكشفوهم وثبتت
الميمنة والقلب ، فقاتلوهم ساعة ، ثم رجعت ميسرة المسلمين إلى
موضعها ، ودامت الحرب بينهم يومهم ذلك ، فقتل من الفريقين
جماعة ، ثم افترقوا وذلك وقت المساء ، حتى إذا مضى من الليل

بعضه أغار المسلمون على قراهم وحصونهم ، فسبوا سبياً كثيراً وغنموا من الغنائم ما ملأت أيديهم ، ثم رجعوا مراكبهم .

قال : وبلغ ذلك صاحب صقلية فاغتم لذلك غمّاً شديداً ، ثم أرسل إلى مقاتلته فدعاهم إليه وقال : ما بالكم لا تغفرون عليهم كما يغفرون عليكم ؟ سوءاً لكم ! لقد خشيت أن تؤخذ صقلية منكم كما أخذت الشام من قبل ، قال : فسكت الروم ولم يقولوا شيئاً ، فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! إنني أشير عليك أن تكتب إلى الملك الأكبر وتسأله المدد ، فقال : لا فعلت ذلك أبداً ، ولو أخذت صقلية من يدي . قال : فلم يزل المسلمون في المحاربة حتى ملؤوا أيديهم من الغنائم وقتلوا منهم بشراً كثيراً .

قال : وبلغ ذلك ملك الروم فجهاز إلى صقلية ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح ، قال : واتصل الخبر بالمسلمين قبل أن يتصل بأهل صقلية ، فرأوا من الرأي أن يرحلوا ، فقال لهم أميرهم : ليس الرأي أن ترحلوا نهاراً ، فإننا لاندري ما يكون من الحدّثان ، ولكن أخروا هذا إلى الليل ، فقالوا : ذاك أيها الأمير !

قال : فلما كان الليل وهدأت العيون قعد المسلمون في مراكبهم وخطفوا من ساحل صقلية ، وهبت الريح ، ورفعوا الشراع ، وسارت المراكب على تودة بغير هول ولا فزع حتى أصبحوا على بلد بعيد من صقلية ، ثم ساروا حتى صاروا إلى ساحل الشام ، فخرج المسلمون من المراكب فأرسوها ثم أخرجوا تلك الغنائم وذلك السبي ، فأخرج معاوية في ذلك كله الخمس ووجه به إلى عثمان ، وكتب إليه يخبره بسلامة المسلمين وما كان من أمر صقلية .

قال : فسرّ عثمان بذلك ، وقسم الخمس على أهل المدينة ، وقسم معاوية ما بقي من بعد الخمس في المسلمين (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر :

فمن ذلك أولا : بيان ما يتصف به ملوك الكفار آنذاك من الانخداع بمظاهر الدنيا إلى حد السذاجة في التفكير حيث يخصص ملك الروم له اللون الأحمر للحذاء ، فلا يلبس من هم دونه بذلك اللون ، وحيث إن ملك صقلية يليه في العزة فإنه يأذن له بفرد أحمر ويكون الآخر باللون الأصفر ، ثم يليهما ملك روما حيث يلبس فرداً أحمر وفرداً أخضر ، ثم بقية الأمراء حيث يلبسون باللون الأسود .

وهذا السلوك يدل على استغراقهم في الطبقية ، وضحالة تفكيرهم حيث ربطوا معالي الأمور بهذه المظاهر الدنيئة .

وثانياً : في الحوار الذي جرى بين مندوب المسلمين وملك صقلية يتبين وضوح المسلمين في عرض قضيتهم ، فهم يقومون بعرض موجز للإسلام يبينون محاسنه بالمقارنة بمساويء الجاهلية ثم ينطلقون إلى العروض الثلاثة المعروفة : الإسلام أو الجزية وإلا فالمناجزة بالقتال ، فهم يبدؤون أولاً بالدعوة إلى الإسلام ويبينون للمدعوين أنهم إذا أسلموا يكونون كأمة الإسلام تماماً في جميع الحقوق ، وهذا يدل على أن الهدف الأعلى عندهم هو نشر الإسلام في الأرض .

ثم يعرضون دفع الجزية مقابل حمايتهم من قبل دولة الإسلام بحيث تكون دولتهم تابعة للدولة الإسلامية ، وفي هذا إزالة لكبرياء

(١) الفتوح لابن أعمش ١/ ٣٦١ - ٣٦٦ .

الكفار وتحطيم لطغيانهم ، حيث يستطيع أبناء تلك البلاد أن يدخلوا في الإسلام متى شاءوا ولا يكون لدولتهم سلطان عليهم بمنعهم من ذلك لأن السلطان لدولة الإسلام ، وبهذا فإن الشعوب ستقبل على الدخول في الإسلام إذا فهموا دعوته خاصة بعد معرفة المزايا الدنيوية ، المادية منها والمعنوية ، مثل وضع الجزية عمن أسلم وظفره بالعطاء السنوي الذي يُعطى لأفراد المسلمين ، وكونه يصبح أثيراً ومقرباً لدى الدولة الإسلامية ذات السلطان الكبير .

وأخيراً فإن في قول مندوب المسلمين « ونحن قوم لانرى القتل سبة ولا الموت عارا ، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم » إظهاراً لعزة المسلمين وشجاعتهم وتصميمهم على القتال ، وتأييلاً للأعداء من محاولة الطمع في تحويل المسلمين عن أهدافهم ومناهجهم المذكورة .

ثالثاً : في المباراة المذكورة حسن اختيار من المسلمين ، حيث اختاروا رجلاً من أهل أفريقية الذين كان الروم يحتقرونهم ، ولقد أذهل الروم أن يتفوق عليهم في ذلك أبناء أفريقية الذين كانوا قبل دخولهم في الإسلام يستذلونهم ويستخدمونهم ، ولئن سلّموا للعرب هذا التفوق ، واعتبروا ذلك اكتشافاً لأمر كانوا يجهلونه فما بال الأفارقة الذين كانوا يخشون الروم ويعيشون تحت استعبادهم ؟ !

ولقد بدا ظاهراً للعيان أن صانع هذا التفوق هو الإسلام وأن الناس بدون هذا الدين متقاربون في الكفاءات وتبادل فرص النجاح والإخفاق ، ولكن ما أن يدخل الإسلام في المعارك حتى تتبدل الموازين فتعلو كفة المسلمين وتنخفض كفة الكافرين مهما كانت جنسياتهم .

وإن ذلك وحده كان كافياً لإقناع أصحاب العقول الراجحة والأفكار النيرة كي يراجعوا حساباتهم نحو هذا الدين ، وقد تم بالفعل تأثر الملايين من الناس وانجذابهم آنذاك إلى الإسلام لما زال حكم الطغاة الذين كانوا يحولون بينهم وبين التفكير المتأمل والنظر الصحيح .

رابعاً : في خبر معرفة المسلمين بتلك السفن التي أبحرت من القسطنطينية لنصرة أهل صقلية دليل على اتصاف المسلمين الأوائل بدقة الرصد والمعرفة الجيدة لتحركات الأعداء حيث علموا بإبحار السفن من بلاد الروم قبل أن يعلم بذلك أهل الجزيرة .

وأغلب الظن أن معاوية - رضي الله عنه - وهو السياسي المحنك والقائد الحربي البار قد وضع طلائع في البحر يرصدون حركة الأعداء ، حتى لا يعرض تلك الحملة التي توغلت في أعماق البحر للخطر ، فيكون في ذلك تغرير بالمسلمين وانتكاسة للجهاد البحري .

هذا وإن ما اتخذته أولئك المجاهدون من قرار الانسحاب لما خشوا أن يحاط بهم لا يُعتبر من الفرار يوم الزحف ، بل كان من التحيز إلى معسكر المسلمين الكبير في الشام ، فهو داخل في قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دَبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾^(١) ، وقد قال عمر رضي الله عنه حينما أصيب جيش المسلمين في العراق بقيادة أبي عبيد بن

(١) سورة الأنفال / ١٦ .

مسعود الشقفي : رحم الله أبا عبيد لو انحاز إليّ لكنت له فئة ، كما سبق .

وفي قول الراوي « وهبَّ الرياح » مثل من عناية الله تعالى بأوليائه المجاهدين وحمايته لهم فإن السفن آنذاك تعتمد قبل كل شيء على هبوب الرياح ، وقد كانت الرياح لصالحهم فسأقت سفنهم نحو ساحل الشام بسرعة كبيرة .

هذا ولقد خيب الله تعالى ظنون ملك الروم وحاكم صقلية حيث توقعوا هلاك تلك الفئة من المسلمين وقد أحيط بهم ، ولم يعلموا أنهم آساد يعرفون كيف يردُّون وكيف يصدرون عند اللزوم ، وأنهم قبل ذلك مستظلون برعاية الله جل وعلا وحمايته ، ولن يخيب من كان الله جل وعلا مولاه وناصره .

* * *

مواقف وعبد

في خلافة

على بن أبي طالب رضي الله عنه

سيكون الكلام على عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قليلا نظراً لانشغاله طيلة مدة خلافته بالحروب الداخلية وإخماد الفتن ، فلم يكن هناك فتوحات ولا أعمال جهادية إلا ما ذكر من قيام أحد ولاية علي رضي الله عنه بالجهاد في السند وهو الحارث بن مرة العبدي^(١) .

وقد تميزت مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بثلاثة أمور : أحدها العدل في الحكم ، وثانيها الزهد في الدنيا والورع ، وثالثها الوصايا والحكم التربوية .

من مواقفه في العدل :

من أمثلة عدله في الحكم ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر ناجية القرشي عن أبيه قال : كنا قياماً على باب القصر إذ خرج علي علينا فلما رأيناه تنحينا عن وجهه هيبة له ، فلما جاز صرنا خلفه ، فبينما هو كذلك إذ نادى رجل : يا غوثاً بالله ! فإذا رجلان يقتتلان ، فلكر صدر هذا وصدر هذا ، ثم قال لهما : تنحيا ، فقال أحدهما : يا أمير المؤمنين إن هذا اشترى مني شاة وقد شرطت عليه أن لا يعطيني مغموزاً ولا محذقاً - يعني الدراهم المعيبة - فأعطاني درهماً مغموزاً فرددته عليه فلطمني ، فقال للآخر : ماتقول ؟ قال : صدق يا أمير المؤمنين قال : فأعطه شرطه ، ثم قال للأطم : اجلس ، وقال للملطوم : اقتصص ، قال : أوغفو يا أمير المؤمنين ، قال : ذلك إليك ،

(١) سيأتي - إن شاء الله - بيان ذلك في فتوح السند .

قال فلما جاز الرجل قال علي : يامعشر المسلمين خذوه ، قال : فأخذوه فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتّاب ، ثم ضربه خمس عشرة درّة ، ثم قال : هذا نكال لما انتهكت من حرمة ، وفي رواية أنه قال : هذا حق السلطان (١) .

هذا وإن هذا الخبر ليعتبر مثلاً عالياً للتواضع حيث يخرج أمير المؤمنين من بيته إلى السوق يتفقّد أحول الناس ، ويقوم بنفسه في حل مشكلاتهم ، وهو نوع من السلوك العالي الذي يبرز وجود الولاية في واقع حياة الرعية سواء قام بذلك الوالي الأكبر أو من دونه ، ولا يلزم تكرّر هذا الوجود كل يوم ، إذ يكفي شعور الناس بأن الولاية معهم في مشكلاتهم ليطمئن صاحب الحق على بقاء حقه في حوزته ، وعودته إليه فيما لو اعتُدي عليه ، وليرتدع من تسوّل له نفسه الاعتداء على حقوق الناس ، وقبل ذلك وأهم منه أن يرتدع كل من يحدث نفسه بالاعتداء على حق الله تعالى .

وهذا الوجود المتلاحم بين الوالي والرعية يظهر بصور متعدّده تتناسب مع أنماط الحياة في كل عصر ، فلا يقولنّ قائل بأن ما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعتبر سائغاً في عصره ولكنه بعيد التّصور في هذا العصر ، فإنه لا عبرة بالأشكال والصور ، وإنما العبرة بالأهداف والمقاصد التي بها تتحقّق الحياة السعيدة للمسلمين ، وذلك برعاية حق الله أولاً ثم حقوق الناس العامة والخاصة .

وفيما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من إجراء العقوبة

(١) تاريخ الطبري ١٥٧/٥ .

على المعتدي مع تنازل صاحب الحق دلالة على إدراكه رضي الله عنه لمقاصد الإسلام من حفظ الأمن وإشاعة السلام بين المؤمنين ، وذلك لأنه سيرتدع من تميل نفسه إلى الاعتداء على غيره إذا عرف بأن العقوبة ستجرى عليه ولو عفا عنه خصمه .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الذهبي بإسناده من خبر الإمام الحسن البصري قال : لما قدم عليّ البصرة قام إليه ابن الكواء ، وقيس بن عباد فقالا له : ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرّت فيه ، تتولّى على الأمة ، تضربُ بعضهم ببعض ، أعهدُ من رسول الله ﷺ عهدهُ إليك ، فحدّثنا فانت الموثوق المأمون على ماسمعت ؟ فقال : أما أن يكون عندي عهدٌ من النبي ﷺ في ذلك فلا ، والله إن كنتُ أوّل من صدّق به ، فلا أكون أوّل من كذبَ عليه ، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهدٌ في ذلك ، ما تركتُ أخا بني تيم بن مُرة ^(١) ، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ، ولقاتلتُهُما بيدي ، ولو لم أجد إلا بُردي هذا ، ولكن رسول الله ﷺ لم يُقتل قتلا ، ولم يمِت فجأة ، مكث في مرضه أيامًا وليالي ، يأتيه المؤذّن فيؤذّنه بالصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس ، وهو يرى مكاني ، ثمّ يأتيه المؤذّن فيؤذّنه بالصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس ، وهو يرى مكاني ، ولقد أرادت امرأةٌ من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال : «أنتن صواحب يوسف ، مُروا أبا بكرٍ يُصلِّ بالناس » .

فلما قبض الله نبيّه ، نظرنا في أمورنا ، فاخترنا لدُنيانا من رضيّه

(١) يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

نبيُّ الله لديتنا . وكانت الصلاة أصل الإسلام ، وهي أعظم الأمر ، وقوام الدين . فبايعنا أبا بكر ، وكان لذلك أهلاً ، لم يختلف عليه منّا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعضٍ ، ولم نقطع منه البراءة ، فأديتُ إلى أبي بكر حقّه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جنوده ، وكنت آخذُ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسوّطي ، فلماً قبضَ ، ولأها عمر ، فأخذ بسنّة صاحبه ، وما يعرف من أمره ، فبايعنا عمر ، لم يختلف عليه منّا اثنان ، ولم يشهد بعضنا على بعضٍ ، ولم نقطع البراءة منه ، فأديتُ إلى عمر حقّه ، وعرفت طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذُ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسوّطي .

فلماً قبضَ تذكّرت في نفسي قرابتي وسابقتي وسالفتي وفضلي ، وأنا أظنّ أن لا يعدل بي ، ولكن خشي أن لا يعمل الخليفة بعده ذنباً إلا لحقه في قبره ، فأخرج منها نفسه وولده ، ولو كانت محاباةً منه لآثر بها ولده فبريء منها إلى رهطٍ من قريش ستّة ، أنا أحدهم .

فلماً اجتمع الرّهط تذكّرت في نفسي قرابتي وسابقتي وفضلي ، وأنا أظنّ أن لا يعدلوا بي ، فأخذ عبد الرحمن موثقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولّاه الله أمرنا ، ثم أخذ بيد ابن عفان فضرب بيده على يده ، فنظرت في أمري ، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي ، وإذا ميثاقي قد أخذ لغيري ، فبايعنا عثمان ، فأديت له حقّه ، وعرفت له طاعته ، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخذُ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسوّطي .

فلما أصيبَ نظرت في أمري ، فإذا الخليفتان اللذان أخذاهما بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصلاة قد مضيا ، وهذا الذي قد أخذ له الميثاق ، قد أصيب فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين (١) .

فهذا مثل من أمثلة العدل وقبول الحق ولو كان لغير صالح النفس من الناحية الدنيوية ، وشاهد من شواهد الأمانة في نقل سنة رسول الله ﷺ ، فقد كان بإمكان علي رضي الله عنه أن يقول شيئاً مما يثبت أمره ويعتبر قوة على منافسيه ، ولكنه يعلم أن ذلك من خيانة الأمانة الدينية ، وما كان ليقدم مجد الدنيا الزائل على رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

إن هذا الأمر لا يتصور حدوثه من صغار الصحابة رضي الله عنهم فضلاً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهود له بالجنة والسابق بالخيرات .

من أخباره في الزهد والورع :

من أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه أبو نعيم بإسناده عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب جاءه ابن النباج فقال : يا أمير المؤمنين امتلاً بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء ، فقال : الله أكبر ! فقام متوكئاً على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين فقال :

هذا جنائي خياره فيه وكسلُ جانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج عليٌّ بأشيع الكوفة ، قال : فنودي في الناس فأعطى

(١) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين / ٦٤٠ - ٦٤٢ .

جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول : ياصفراء ويابيضاء غُري
غُري ، ها ، ها ، حتى ما بقي منه دينار ولادهم ، ثم أمره بنضحه
وصلّى فيه ركعتين .

وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي قال : كان
عليّ يكنس بيت المال ويصلي فيه ويتخذ مسجداً رجاء أن يشهد له
يوم القيامة (١) .

ففي هذا مثل بليغ في الترفع عن متاع الدنيا الزائل ، فبيت المال
قد امتلأ من الذهب والفضة ، ولا ينظر إليه علي بن أبي طالب رضي
الله عنه نظرة إعجاب وغرور ، بل كان جوابه حينما أبلغه المسئول
المالي عن ذلك أن قال : الله أكبر ! فإذا كان بعض الناس يكبرون
الدنيا ويعظمونها فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء ، ومادام المسلم
يشعر حقاً بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلماً لما هو أصغر !!

إنه فقه عظيم من علي رضي الله عنه حينما تذكر هوان الدنيا
وحقارتها فكبر الله تعالى ، ولسان حاله يؤنب من انخدع بمتاع الدنيا
الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء .

وإنه لميزان دقيق يحسه المؤمن الذي نور الله سبحانه بصيرته ،
فكلما كان الله تعالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبه كانت الدنيا
وما فيها أهون شيء عليه ، وأصبح يسخر المال الحلال في طاعة الله
جل وعلا ، وكلما عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص
تعظيمه لله تعالى .

ونجد علياً رضي الله عنه يُحلّق في آفاق العظمة وهو يخاطب

(١) حلية الأولياء / ١ - ٨٠ - ٨١ ، تاريخ الإسلام للذهبي / الخلفاء الراشدون / ٦٤٣ .

الدنيا بقوله : ياصفراء يابيضاء غُرِّيْ غيري .. مما يدل على الوجدان الحيّ والحسّ المرفه الذي يصور الدنيا كخصم يخاتل ويراوغ خصمه .. وهو بهذا يعلن انتصاره على جموح النفس وجنوح العواطف ، ويُحكِّم عقله الذي يعطي الدنيا حجمها المناسب لزمانها المحدود في شقائها ونعيمها ، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها .

ونجده رضي الله عنه يصل إلى قمة المعالي حينما صلى في بيت المال ركعتين لتكونا شاهدين له يوم القيامة بأنه قد عدل في حكمه واستقام في أمره .

ولعل في اتخاذ بيت المال مسجداً رمزاً لعلو الآخرة على الدنيا ، وهو مكملٌ للسلوك العالي الذي مارسه في تصريف ذلك المال في وجوهه المشروعة .

ومن مواقف علي رضي الله عنه في الزهد والورع ما رواه هارون ابن عنترة عن أبيه قال : دخلت على علي بن أبي طالب بالخنزورنق^(١) وهو يُرعد^(٢) تحت سَمَلِ قطيفة^(٣) فقلت : ياأمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تصنع بنفسك ماتصنع ، فقال : والله ما أرزؤكم من مالكم شيئاً وإنها لقطفتي التي خرجت بها من منزلي - أو قال من المدينة^(٤) .

(١) موضع بالكوفة .

(٢) يعني من شدة البرد .

(٣) يعني قطيفة قديمة .

(٤) حلية الأولياء ٨٢/١ ، صفة الصفوة ٣١٦/١ ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء / ٦٤٤ .

وهنا نتساءل فنقول : ما الذي حمل أمير المؤمنين علياً على أن يعيش عيشة الفقراء وأن يتحمل البرد القارس وهو قادر على أن يشتري أفخر ما يوجد في الأرض من الملابس وأكثرها دفئاً ؟ !
ولماذا تورع عن أموال المسلمين مع أن له حقاً فيها ؟

إنه مثال للزهد الحقيقي حيث يرغب عن متاع الدنيا مع القدرة التامة على تحصيله .

إنه تلميذ المدرسة النبوية التي تربي فيها على الزهد في متاع الدنيا الزائل ، والتنافس على نعيم الآخرة الخالد ، فلقد عاش رسول الله ﷺ عيشة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأفضل الأغنياء .

ومن أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي مطر عمر بن عبد الله الجهني قال : رأيت علياً عليه السلام متزراً بإزار مرتدياً برداء ومعه الدرّة (١) كأنه أعرابي بدوي ، ثم ذكر دخوله إلى السوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم ، وأن التاجر عرفه ، قال : فلما عرفه لم يشتري منه شيئاً ، فأتى آخر فلما عرفه لم يشتري منه شيئاً ، فأتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ثم جاء أبو الغلام فأخبره ، فأخذ أبوه درهماً ثم جاء به فقال : هذا الدرهم يا أمير المؤمنين ، قال : ما شأن هذا الدرهم ؟ قال : كان ثمن القميص درهمين ، فقال : باعني رضاي وأخذ رضاه (٢) .

(١) الدرّة بكسر الدال وتشديد الهمزة العَصَا .

(٢) الزهد / ١٣٠ .

فهذا مثل في الزهد من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلقد كان مظهره في لباسه يوحى بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه ، وحينما اشترى له ثوباً اختار نوعاً متواضعاً رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسئول في العالم ، حيث كان خليفة المسلمين ، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا .

ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينما امتنع من الشراء ممن يعرفونه حتى لا يراعه في الثمن لمنصبه ، فهو لا يريد أن يستثمر منصبه الكبير لمصالحه الخاصة ، وهذا فهم دقيق لمجالات الورع والتقوى ، فالخلافة عنده وعند أمثاله عمل صالح ، والخليفة إذا صاحبه العدل كان أول السبعة الذين يظلمهم الله تعالى في ظله يوم القيامة ، فهو لا يريد أن يندس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيتحول العمل إلى مَجْلَبَةٍ للوزر بدلاً من الأجر ، فكان بهذا السلوك العالي قدوة حسنة لمن أتوا بعده .

ومن أخباره رضي الله عنه في الزهد ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من حديث عمر بن قيس قال : قيل لعلي عليه السلام : لم ترقع قميصك ؟ قال : يخشع القلب ويقتدي به المؤمن (١) .

فهذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصه على تربية المسلمين على حياة الزهد والتقشف ، فقد لاحظ في لبس الثوب المرقوع ملحظين : الأول أنه وسيلة إلى خشوع القلب وتواضع النفس والبعد عن أسباب العجب والكبرياء ، والثاني أنه يعتبر بذلك قدوة للمسلمين ،

(١) الزهد / ١٣١ ، وانظر تاريخ الإسلام / الخلفاء / ٦٤٧ .

فإذا رآه الناس - وهو في أعلى منصب - يلبس الثوب المرقوع فإن نفوسهم تتطامن ويتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن ، ويتقوى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون للامهات الناس على سلوكهم حياة الزهد .

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد من خبر عبد الله بن زُرير الغافقي قال : دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال حسن (١) : يوم الأضحى - فقرب إلينا خزيرة (٢) ، فقلت : أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط - يعني الوز - فإن الله عز وجل قد أكثر الخير ! فقال : يا ابن زُرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدي الناس (٣) .

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يضرب مثلاً عالياً في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب ، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ما شاء من الأموال مما لا يلفت النظر إليه ، حيث يؤمن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين ، ولكنه رضي بخشونة العيش إثارة للأجلة على العاجلة ، واحتياطاً لأمر دينه ، وإبرازاً للقدوة الصالحة ، لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن ذلك عزاء

(١) هو حسن بن موسى شيخ الإمام أحمد .

(٢) الخزيرة لحم يقطع ويطبخ بالماء ثم يذر عليه الدقيق .

(٣) مسند أحمد ٧٨/١ .

للفقراء ليصبروا ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره ، ووعظًا للأغنياء
ليشكروا الله تعالى فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف .

وإذا أخذ الأغنياء بالمنهج الوسط في المعيشة فإن فضول أموالهم
ستعود في النهاية إلى الفقراء لما ينتظرونه مقابل ذلك من الجزاء
المضاعف في الآخرة ، وبالتالي يرتفع الفقراء درجات نحو الوسط ،
وينزل الأغنياء درجات نحو الوسط ، ليعيش الجميع حياة متقاربة في
الأمر المعيشية من طعام ولباس ومركب وسكن .

وهذا هو المنهج الإسلامي الذي طبقه رسول الله ﷺ وخلفاؤه
الراشدون من بعده رضي الله عنهم .

من مواقفه في الوصايا والحكم التربوية :

من ذلك ما ذكره أبو نعيم وابن الجوزي رحمهما الله عن عاصم
ابن ضمرة رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال :
ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم
من عذاب الله ولا يرخص لهم في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة
عنه إلى غيره ، ولا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا خير في علم لا فهم
فيه ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها (١) .

ففي هذا النص يبين لنا علي رضي الله عنه أن من الفقه في الدين
التزام صفة الاتزان والاعتدال في عرض أمور الدين ومحاولة إصلاح
الناس ، وذلك بأن يسير الداعية في خط وسط بين مقامَي الخوف
والرجاء ، فلا ينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يقنطون

(١) حلية الأولياء ٧٧/١ ، صفة الصفوة ١/٣٢٥ .

من رحمة الله تعالى ، ولا ينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يأمنون من عذاب الله تعالى ، ولقد جاءت آيات وأحاديث الوعد والتبشير أدوية شافية من أمراض اليأس والقنوط التي تحمل صاحبها على فقد الرجاء والأمل بعفو الله جل وعلا ورحمته ، كما جاءت آيات وأحاديث الوعيد والإنذار أدوية شافية من أمراض الجفاء والقسوة ، التي تحمل صاحبها على فقد الخوف والخشية من نقمة الله تعالى وعذابه .

والحكيم كل الحكمة هو الذي يضع الأدوية في مواضعها المناسبة لها ، ولقد ضلت طوائف بسبب الإفراط في الأخذ بأخبار الوعد فأعطوا بذلك من ضلوا معهم أمانا من عذاب الله تعالى وإن قصروا وخالفوا ، وضلت طوائف بسبب الإفراط في الأخذ بأخبار الوعيد فأوقعوا من تأثر بهم في دائرة اليأس من رحمة الله تعالى ، والمنهج الصحيح هو الاتزان والاعتدال في الأمرين .

ونجد عليا رضي الله عنه في هذا النص يبين أن من مظاهر الفقه في الدين أن لا يهونُ العالم من شأن المعاصي فيجريئ الناس على ارتكابها ، وأن يحافظ على مستوى الإيمان والتقوى لدى الناس مع محاولة رفعهم نحو الكمال في ذلك .

كما يبين أن من الفقه أن يحاول العالم ربط المسلمين بكتاب الله تعالى ، وأن لا يتجاوزوه إلى غيره رغبة عنه لأنه مصدر الهداية الأول ، ومن المعلوم أن السنة النبوية بيان تفصيلي للقرآن الكريم فالتوجيه إلى القرآن يعتبر توجيها إلى السنة .

ثم يبين أن من أهم شروط العبادة الشرعية المقبولة أن تكون صادرة عن علم بالكتاب والسنة ، وأن العلم لا يكون نافعا إلا إذا رافقه الفهم الصحيح ، وذلك أنه إذا تخلف الفهم الصحيح فقد يخلفه الفهم السقيم فيكون الضلال والانحراف ، ومن هنا كان الاطلاع على فقه العلماء الربانيين له أهميته القصوى في تصحيح الفهم وتقويم الفكر .

ويختتم وصيته النافعة ببيان أهمية تدبر معاني كتاب الله تعالى حال التلاوة لأن الخير كل الخير في فهم مقاصد القرآن الكريم للعمل بأحكامه والاتعاظ بمواعظه وتنمية الإيمان بتذكر معاني هذا الكتاب العظيم .

ونجد وصية أخرى رواها الشعبي رحمه الله عن علي رضي الله عنه أنه قال : يا أيها الناس خذوا عني هؤلاء الكلمات ، فلو ركبتم المَظِيَّ حتى تُنْضَوْها - يعني تهزلوها - ما أصبتم مثلها : لا يرجوَنَّ عبد إلا ربه ، ولا يخافَنَّ إلا ذنبه ، ولا يستحي - إذا لم يعلم - أن يتعلم ، ولا يستحي - إذا سئل عما لا يعلم - أن يقول لا أعلم ، وأعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس له (١) .

ففي هذه الوصية الجمع بين تصحيح التوحيد ، والإرشاد إلى آداب العلم ، حيث يوصي رضي الله عنه بتصحيح الاتجاه في مقامَي الخوف والرجاء ، فالمؤمن الحق لا يرجو إلا الله تعالى لأنه وحده المنعم بسائر النعم ، والذين تجري على أيديهم النعم من المخلوقين إنما هم

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٥ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢٦ .

وسائط وأسباب في وصول تلك النعم ، أما منشئ النعم وموجودها فهو الله تعالى .

والمؤمن الحق لا يخاف إلا من الله تعالى لأنه هو الذي يملك ضره ونفعه ، والمخلوقون الذين يتوهم الناس أنهم مصدر خوف إنما هم وجميع الخلق في قبضة الله تعالى ، وإذا كان الله تعالى وحده هو الرازق وهو الخالق وحده وهو المالك وحده القادر على كل شيء فلم يرجو المؤمن سواه أو يخاف من غيره ؟!

ولقد عبر علي رضي الله عنه عن الخوف من الله تعالى بالخوف من الذنوب لأن المراد هو الخوف من عاقبتها وهو عذاب الله تعالى فهو إرشاد لأهم السبل الموصلة إلى تحقيق مقام الخوف من الله تعالى .

ثم يبين شيئا من آداب التعلم لأن أمور الدين إنما تؤخذ بالعلم فيذكر من آداب المتعلم أن لا يمنعه الحياء من التعلم حتى لو كان كبير السن أو القدر ، ويذكر من آداب المعلم أن لا يمنعه الحياء من أن يقول لا أعلم فيما لا أعلم له به لأن ذلك يحفظ عليه دينه ودين من سأل .

ثم يختتم وصيته النافعة ببيان أصل من أصول الإيمان ألا وهو الصبر حيث يعتبره من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وذلك أن نجاح الأمور كلها يقوم على الصبر سواء في أمور الدنيا أو الآخرة .

ومن ذلك ما رواه عبد خير بن يزيد الهمداني رحمه الله عن علي رضي الله عنه قال : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعبادة ربك ، فإن أحسنت حمدت الله وإن أسأت استغفرت الله ، ولا خير في الدنيا إلا

لأحد رجلين: رجل أذنب ذنبا فهو يتدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع في الخيرات ، ولا يقلُّ عمل في تقوى ، وكيف يقلُّ ما يُتَقَبَّلُ^(١) .

ففي هذه الوصية يبين لنا علي رضي الله عنه مقياس الخيرية والأفضلية في هذه الحياة الدنيا ، فأفضل الناس ليس أكثرهم مالا ولا أولادًا كما يفهم الجاهلون ، بل أفضلهم أعلمهم بالله تعالى وأكثرهم حلما ، والعلم إذا لم يوصل إلى خشية الله تعالى وتقواه فليس بعلم نافع ، والحلم يكون خلقًا متوارثًا ويكون مكتسبًا ، والحلم المكتسب أثر من آثار العلم بالله تعالى .

ويشير علي رضي الله عنه إلى الأمر العالي الذي يجب أن يكون التنافس عليه في هذه الحياة وهو عبادة الله تعالى ، وليس المقصود بالمباهاة بالعمل الصالح مراعاة الناس بذلك وإنما المقصود وضوح الهدف العالي الذي يجب أن يتنافس المسلمون على بلوغه ألا وهو بذل الجهد في عبادة الله تعالى وحده .

ويبين علي رضي الله عنه أن الذين يستفيدون من بقائهم في هذه الحياة الدنيا هم الذين يعمرونها بصالح الأعمال التي يتزودون بها للحياة الآخرة سواء في ذلك الذين يكسبون هذه الأعمال الصالحة لرفع رصيدهم الأخروي أو الذين يعملون من أجل الدنيا فهم من ضعف العقول لأن أنظارهم قصرت على دار الزوال ولم تطمح إلى دار الخلود فلا خير في أعمالهم .

ونجد عليا رضي الله عنه في وصية أخرى يحذّرنا من داءين خطيرين هما اتباع الهوى وطول الأمل حيث يقول: إن أخوف ما أخاف

(١) حلية الأولياء ٧٥/١ ، صفة الصفوة ١/٣٢١ .

اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، ألا وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بُنُونٌ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل (١) .

فالداء الأول هو اتباع الهوى ، وقد بين علي رضي الله عنه أنه يصد عن الحق ، وذلك أن الذي يتبع هواه يسد منافذ فكره فلا يصل نور الحق إلى عقله .

والداء الآخر طول الأمل ، وقد ذكر أنه ينسي الآخرة ، وذلك أن الذي يعيش مع أحلام الدنيا تستهويه هذه الأحلام فيسخر فكره للتخطيط للمستقبل الدنيوي ، وينسى العمل للمستقبل الأخروي .

ثم يصور زوال الدنيا بالراحل المدبر ، فالذي يتبع ذلك قد انخدع بالسراب ولن يصل إلى النعيم الحقيقي ، ويصور الآخرة بالقادم المقبل ، وإنه ليس من العقل السليم أن ينشغل الإنسان بالمدبر الفات من المقبل المحقق .

ومن وصايا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه النافعة مارواه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب كتب به إلي علي بن أبي طالب فإنه كتب إلي : « أما بعد فإن المرء يسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه ، ويسره دَرْكُ ما لم يكن ليفوته ، فليكن سرورك بمأنت من أمر آخرتك ،

(١) حلية الأولياء ٧٦/١ ، صفة الصفوة ٣٢١/١ .

وليكن أسفك على ما فاتك منها ، ومائلت من دنياك فلا تكثرنَّ به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه حزنا ، وليكن همك فيما بعد الموت (١) .

وإنها لوصية نافعة حقا حيث ركز فيها علي رضي الله عنه على جمع الفكر وتسخيره للنظر في أمور الحياة الآخرة ، وقدم لذلك بمقدمة يؤمن بها جميع العقلاء ، وهي أن الإنسان العاقل يسره إدراك ما يحب ويسوءه فوات ذلك عليه ، وإذا كان الأمر كذلك وعرفنا حقيقة أخرى يدركها كل مسلم وهي أن الآخرة هي دار الخلود وأن نعيمها هو النعيم الحقيقي الذي لا يخالطه كدر ، وأن شقاءها هو الشقاء الحقيقي الذي لا يخالطه سعادة . . إذا عرفنا ذلك فإن من كمال العقل وسداد الرأي أن يسعى المسلم إلى إدراك ما يحب من أمر الآخرة والندم على ما فات منها وأن لا يشغل نفسه عن ذلك بأمور الدنيا الزائلة .

ومن ذلك الخبر الذي رواه الحافظ أبو نعيم عن كُمَيْل بن زياد قال : أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي فأخرجني إلى ناحية الجَبَّان - يعني الصحراء - فلما أصبحنا جلس ثم تنفس ثم قال : ياكميل بن زياد ، القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم ، احفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نَجاة ، وهَمَجٌ رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه

(١) صفة الصفوة ١/ ٣٢٧ .

النفقة ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، وصنعة المال تزول بزواله ، ومحبة العالم دين يدان بها ، العلم يُكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الأحداث بعد مماته ، مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة (١) .

إن هذه الوصية البليغة قد اشتملت على دُرر المواعظ وغُرر الحكم ، فقد قسم علي رضي الله عنه الناس إلى ثلاثة أقسام :

الأول : العلماء الربانيون ، والمقصود بالعلماء علماء الدين ، والربانيون الذين يجمعون بين الفقه والحكمة كما جاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ ﴾ قال : حكماء فقهاء ، أخرجهم الإمام البخاري ، وبذلك فسره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٢) .

فالذين يجمعون بين الحكمة والفقه هم المؤهلون لتربية الأمة وتوجيهها ، لأن الحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب ومن ذلك التوفيق إلى تطبيق الحكم الشرعي على واقع الناس ، وذلك يقتضي فهما دقيقا لواقع المجتمع الإسلامي ، ومن الحكمة القيام بتربية الأمة بهذا الدين ، وذلك يقتضي الجمع بين تعليم الدين والتربية على التقوى ومكارم الأخلاق .

أما الفقه فهو فهم الأحكام الدينية من مصادرها الشرعية .

(١) حلية الأولياء ٧٥/١ ، ضفة الصفوة ٣٢٩/١ .

(٢) فتح الباري ١٦١/١ .

ولذلك كان العلماء الربانيون هم أفضل الأمة ، لأنهم جمعوا بين فضيلتين : تَلَقَّى العلم ، والتعليم مع التربية ، فهم المؤهلون لتربية الأمة وتوجيهها .

القسم الثاني : طلاب العلم الذين أخلصوا نياتهم في طلب العلم ليكون وسيلة إلى نجاتهم من المسؤولية أمام الله تعالى ، وقد عبر علي رضي الله عنه عن هذا القسم بقوله « ومتعلم على سبيل نجاة » وهذا لا يختص بالدارسين الذين تفرغوا لطلب العلم ، وإنما يشمل كل من حمل مسؤولية تطبيق هذا الدين ، وأهمه أمر نجاته في الآخرة ، فاستفتى في أمور دينه العلماء الربانيين ، ليعبد الله تعالى على بصيرة وليستقيم في معاملته مع الناس على منهج شريعة الله تعالى ، فهذا يعتبر من المتعلمين على سبيل النجاة وإن لم يجلس في حلقات العلم .

القسم الثالث : الذين هجروا العلم الديني ولم يكن لهم ارتباط بالعلماء الربانيين في معرفة أمور دينهم ، وقد عبر عنهم علي رضي الله عنه بقوله « وهمَجٌ رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق » فهؤلاء هم الذين اهتموا بأمر دنياهم وأهملوا أمر آخرتهم ، فهم يتبعون كل داع يدعوهم إلى أمر مستقبلهم الدنيوي ، ولكنهم يستثقلون الدعوة إلى تأمين مستقبلهم الآخروي .

وقد ذكر من صفاتهم أنهم يميلون مع كل ريح ، وهذا يعني أنهم لا يثبتون على مبدأ واحد تجاه هذا الدين ، فهم أحياناً يلتزمون ببعض الطاعات ، ثم يهملونها أحياناً أخرى ، وأحياناً يقلعون عن بعض

المعاصي ، ثم يعودون إليها ، وذلك لأنهم لم يتصوروا المبدأ الواضح الذي يتفق على الإيمان به والعمل له كل المسلمين المخلصين ، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة ، كما قال الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّרَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) فالفضل من الله هو الجنة ورضوان الله أكبر من ذلك ، فالذي يتصور هذا الهدف ويؤمن به حقا يستقيم سلوكه في هذه الحياة ، لأن كل أعماله تتوجه وتتعدل بموجب مراعاة هذا الهدف السامي ، أما الذي يفقد تصور هذا الهدف فإنه حقا يميل مع كل ربح .

ثم ذكر من صفاتهم أنهم لم يستضيئوا بنور العلم ، وذلك لأنهم أخذوا هذا الدين بالورثة ، فهم مسلمون لأنهم ولدوا كذلك ونشئوا في بيئة إسلامية ، ولكنهم لا يهتمون بأمور الدين ولا يسألون أهل الذكر عما خفي عليهم .

ثم ذكر أنهم لم يلجئوا إلى ركن وثيق ، وذلك لأنهم بالرغم من إيمانهم بالله تعالى فإن هذا الإيمان ليس له وجود حي في قلوبهم بحيث يؤثر على حياتهم فيحرك مشاعرهم ، ثم بالتالي يقوم

(١) الفتح / ٢٩ .

سلوكهم ، ولذلك فإنهم يأخذون من أمور الدين ما يوافق أهواءهم
ويتركون ما يخالفها .

وفي المقطع الأخير من الوصية يعقد علي رضي الله عنه مقارنة
بين العلم والمال ، باعتبار أن العلم الشرعي هو عماد أهل الآخرة
ومعقد عزهم وشرفهم في الدنيا والآخرة ، وباعتبار أن المال هو عماد
وجود أهل الدنيا ومحط تنافسهم وشرفهم ، وقد بدأ بالحكم على
العلم بأنه خير من المال ، والمقصود بالعلم هنا العلم الإلهي حيث إنه
هو الذي يهدي إلى رضوان الله تعالى وسعادة الدنيا والآخرة ،
والمقصود بالمال هنا الذي يجمعه صاحبه لذاته ولا يتوجه فيه بالعلم
الإلهي . وقد سوغ هذا الحكم بعدة أمور :

١- أن العلم يحرس صاحبه بينما صاحب المال هو الذي يحرسه ،
فأما حراسة العلم صاحبه فإن العلم الإلهي يقي صاحبه من مهالك
الدنيا والآخرة ، فأما أمر الآخرة فظاهر معلوم حيث إن هذا العلم
يقود صاحبه إلى رضوان الله تعالى والجنة ويجنبه طريق النار . وما
أعظمها من مطالب وما أبلغها من مكاسب .

وأما الوقاية من مهالك الدنيا فإن السعادة الروحية الحقة لا تكون
إلا باليقين الذي تتضاءل أمامه الحياة الدنيا فتصبح جميع مآسيها
ونكباتها برداً وسلاماً على أصحاب اليقين لأنهم لا يُلْقون لها بالا
ولا يعيرونها اهتماماً بينما تتحول هذه المآسي والنكبات إلى حياة
جحيمية على أهل الدنيا الذين يعتبرون الحياة الدنيا هي رأس المال
والمكسب .

وأما حراسة صاحب المال ماله فأمرها ظاهر ، فكم تململ أصحابها من الهم والخوف عليها تململ المريض وكم تجافت جنوبهم عن مضاجعهم من التفكير المنهك كما تتجافى جنوب العباد عن مضاجعهم ! ولكن ما أبعد الشقة بين مطالب هؤلاء ومطالب هؤلاء ! لئن جمع بينهم التفكير العميق الذي يطير معه النوم فإن العباد يسبحون في جو عبق من الروح والريحان ، والأمل المشرق في مستقبل أخروي سعيد ، وما جفا النوم عيونهم إلا لطموحهم نحو مزيد من المنازل العليا في الجنة ، وإن أصحاب هذا الشعور المشرق لن يتطرق إلى قلوبهم شيء من الغم القاتل ، بخلاف من بات يحرس ماله بهممة وقلقه وحزنه المنهك .

٢ - أن العلم ينمو ويترسخ بالعمل ، لأن العمل تطبيق للعلم فهو بذلك يزيده عمقاً في الذاكرة بخلاف المال فإن الإنفاق منه ينقصه ، ولا يغيب عن البال أن المقصود هنا أموال أهل الدنيا التي ينفقون منها من أجل الدنيا ، أما أموال أهل الآخرة فإنها محكومة بالعلم الإلهي ، فالإنفاق منها يزيدها نمواً كما جاء في قول الرسول ﷺ « مانقص مال عبد من صدقة » (١) .

٣ - أن العلم الشرعي حاكم لأنه به تنتظم شؤون الحياة ، وعلى منهاجه يجب أن تقرر جميع الأنظمة التي تحكم الناس ، فهو الحاكم الحقيقي ، أما المال فإنه محكوم عليه لأن إصداره وإيراده يخضع للأنظمة الحاكمة سواء كانت شرعية أو غير شرعية .

(١) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ١٧ .

٤- أن العلاقات الاجتماعية التي تقوم على المصالح المالية المشتركة تزول بزوال المال ، لأنه هو الذي عقد تلك العلاقات بناء على تبادل المصلحة بوجوده فإذا زال زالت تلك المصالح ، أما العلاقات الأخوية التي تقوم على تبادل العلم الشرعي بين العالم ومحبيه فإنها باقية خالدة في الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٦٧] بل إن هذه الأخوة تكون في الآخرة أجل وأعلى كما في قول الله تعالى عن أهل الجنة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر : ٤٧] .

٥ - أن العلم الشرعي يكسب صاحبه ولاء المسلمين وطاعتهم اختياراً منهم من غير أن تُفرض عليهم هذه الطاعة ، وذلك على امتداد حياتهم كما يكسبهم الذكر الحسن بعد مماتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حيث لا يفقد الناس إلا صورهم وأشكالهم ، وإننا لو استعرضنا التاريخ إلى عصرنا هذا لوجدنا العلماء من عهد الصحابة رضي الله عنهم تتردد أسماءهم ويذكر تاريخ حياتهم في الكتب والخطب والدروس العلمية ، بينما اندرست أسماء كبار أهل الدنيا بانقضاء حياتهم ، وأحياناً يشاهدون انطفاء سمعتهم وهم أحياء .

* * *

فهرس الجزأين الثالث والرابع

الموضوع	الصفحة
مواقف وعبر في معركة اليرموك	٥
- استعداد الروم للمعركة	٧
- مشورة أبي عبيدة مع قاذته	٨
- رسالة إلى أمير المؤمنين عمر	١١
- رسالة إلى أبي عبيدة	١٣
- مشورة أخرى لأبي عبيدة مع القادة	١٥
- كتاب من عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة	١٧
- كتاب من أبي عبيدة إلى عمرو	١٨
- كتاب من عمرو بن العاص إلى الروم	٢١
- مثل من فساد قادة الروم	٢٣
- رسالتان بين أبي عبيدة وعمر	٢٧
- عدد أفراد الجيشين	٣٣
- مكان المعركة والتقاء الجيشين	٣٤
- مناوشة بين بعض الجيشين	٣٦
- تنظيم جيش المسلمين	٣٨
- مبارزة ومناوشات	٤٣
- عدول الروم إلى المفاوضات	٤٥
- حوار خالد بن الوليد مع الروم	٥٢
- مشورة قائد الروم باهان لأصحابه	٦٢
- استعداد الجيشين للمعركة	٦٥

الموضوع	الصفحة
- عيون المسلمين	٦٧
- مبشرات بالنصر	٦٨
- إنذار الروم بالهزيمة	٧١
- استعداد الجيشين للمواجهة	٧٤
- وصف المعركة	٧٧
- تحديد تاريخ المعركة	٨٨
- بلوغ هزيمة الروم ملك الروم	٩١
- رسالتان بين أبي عبيدة وعمر	٩٣
- مواقف بطولية لبعض المسلمين	٩٤
مواقف وعبر في فتوحات الشام	١٠٣
(مابعد اليرموك)	
- فتح قنسرين	١٠٦
- فتح حلب وأنطاكية	١٠٨
- فتح اللاذقية	١٠٩
- فتح قيسارية	١١١
- فتح بيت المقدس	١١٣
أبو عبيدة في القدس	١١٥
وصول أمير المؤمنين عمر إلى الشام	١٢٢
خطبة لعمر	١٢٤
أذان بلال	١٢٥
شكوى من بلال	١٢٦
عمر يجري الصلح مع أهل بيت المقدس	١٢٧

١٣٠	بشرى عظيمة
١٣١	عمر في المسجد الأقصى
١٣٢	وصول عمر إلى المدينة
١٣٤	- حصار الروم مدينة حمص
١٣٩	- فتح بلاد الجزيره
١٤٣	- عزل خالد عن قنسرين
١٤٧	- حياة خالد الجهادية
١٥٠	- نهاية خالد
١٥٣	مواقف وعبر في فتح المدائن
١٥٥	- في الطريق إلى المدائن
١٥٦	- معركة كوثي
١٥٨	- معركة مظلم ساباط
١٦١	- التوجه نحو المدائن
١٦٤	- مشورة بين سعد وجنوده في عبور النهر
١٦٧	- عبور نهر دجلة وفتح المدائن
١٧٨	- مواقف من أمانة المسلمين
١٨٢	- وصول نوادر الغنائم إلى المدينة وموقف لعمر
١٨٧	مواقف وعبر في فتوح المشرق
١٨٩	- موقعة جلولاء
١٩٤	- غزوة فارس من جهة البحرين
٢٠١	- فتح رامهرمز
٢٠٢	- فتح تستر

الموضوع	الصفحة
- خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان	٢٠٦
- عمر يستشير الهرمزان	٢١٤
- فتح مدينة جُنْدِي سابور	٢١٦
- النعمان ومدينة كسكر	٢١٨
- شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص	٢١٩
- معركة نهاوند (فتح الفتوح)	٢٢٩
- معاهدة بين الفرس	٢٢٩
- مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي	٢٣٠
- كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان	٢٣٣
- مغامرة من طليحة الأسدي	٢٣٦
- وصول المسلمين إلى نهاوند	٢٣٧
- مناقشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي	٢٣٩
- خطبة للنعمان	٢٤٣
- ابتداء المعركة الفاصلة	٢٤٥
- مواقف لبعض المجاهدين	٢٤٩
- وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر	٢٥١
- فتح أصبهان	٢٥٧
- معركة واج الروذ	٢٥٩
- فتح الري	٢٦١
- فتح الباب	٢٦٣
- شهادتان لصالح المسلمين	٢٧٠
(شهادة ملك الباب وشهادة ملك الصين)	

٢٧٥	وصية من أمير المؤمنين عمر
٢٧٦	من أمثلة أمانة جنود الإسلام
٢٧٩	- مواقف لبعض قادة المسلمين
	(الحكم بن أبي العاص ، عبيد الله بن معمر ، الأخنف بن قيس)
٢٨٥	- خبر سارية بن زنيمة وموقف لعمر
٢٨٨	- فتح سجستان
٢٨٩	- معركة بيروز من الأهواز
٢٩١	- شكوى ضد أبي موسى الأشعري
٢٩٥	مواقف وعبر في فتح مصر
٣٠٠	- مسير عمرو بن العاص إلى مصر
٣٠٣	- معركة أم دنين
٣٠٥	- معركة باب اليون وحصار حصنها
٣٠٥	مفاوضات ومواقف لعمر بن العاص
٣٠٨	رسل المقوقس يتأثرون بصلاح المسلمين وأخلاقهم
٣١١	حوار المقوقس مع وفد المسلمين وموقف لعبادة بن الصامت
٣٢٠	فتح حصن باب اليون ثم الصلح
٣٢١	مواقف جهادية لبعض المسلمين
	(عبادة بن الصامت ، الزبير بن العوام)
٣٢٤	موقف عدالة من أمير المؤمنين عمر
٣٢٥	موقف دهاء لعمر بن العاص
٣٢٧	موقف رحمة من عمرو بن العاص

الصفحة	الموضوع
٣٣٠	- فتح الإسكندرية
٣٣٠	موقف لعبد الله بن عمرو في الصبر
٣٣٠	عزم ملك الروم على إنقاذ الإسكندرية ثم موته فجأة
٣٣١	من أمثلة دهاء عمرو بن العاص وبديته
٣٣٢	موقف لأحد المجاهدين
٣٣٥	موقفان لعمرو ومسلمة بن مخلد
٣٤١	كتاب من أمير المؤمنين عمر
٣٤٣	استشارة عمرو أهل الرأي ونهاية المعركة
٣٤٥	موقفان لعمرو وعبادة بن الصامت
٣٤٧	رسول من عمرو إلى أمير المؤمنين بالفتح
٣٥٠	الفتح ثم الصلح ومواقف عالية للمسلمين
٣٥٥	موقفان لأمير المؤمنين عمر
٣٥٧	مواقف وعبر في خلافة عثمان رضي الله عنه
٣٥٩	- استشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما
٣٦٣	- خبر الشورى بين أهل الحل والعقد
٣٦٨	- من مواقف عثمان بن عفان
٣٦٨	- كتابه إلى الولاة
٣٦٩	- كتابه إلى قادة الجنود
٣٧٣	مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المشرق وبلاد الروم
٣٧٥	- مواقف جهادية في أذربيجان وبلاد الروم
٣٧٧	- موقفان لحبيب بن مسلمة وزوجته
٣٧٩	- فتح بعض بلاد خراسان

الموضوع	الصفحة
- معركة في طخارستان	٣٨١
مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المغرب	٣٨٥
- فتح مدينة سببلة بأفريقية	٣٨٧
موقف لعبد الله بن الزبير	٣٨٨
- حروب المسلمين البحرية	٣٩٣
- فتح جزيرة قبرص	٣٩٥
خبر عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام	٣٩٥
موقف لأبي الدرداء	٣٩٦
- غزوات ابن قيس البحرية	٣٩٩
- غزوة ذات الصواري	٤٠٣
- غزوة جزيرة صقلية	٤٠٨
حوار بين حاكم صقلية ورسول المسلمين	٤١٠
مبارزة بين أحد زعماء الروم وأحد المجاهدين	٤١٢
مناوشات بين المسلمين والروم	٤١٣
عودة المسلمين إلى ساحل الشام	٤١٤
مواقف وعبر في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٤١٩
- من مواقفه في العدل	٤٢١
- من أخباره في الزهد والورع	٤٢٥
- من مواقفه في الوصايا والحكم التربوية	٤٣١